أصفر ذو حدين

نجاح عز الدين

إسم الـــــكتـاب : أصفر ذو حدين

إسم الكـــــاتـــب : نجاح عز الدين

تصميم الغلاف : عبير محمد

تدقيق لـــــغـــوي : كارم أحمد

رقـــــم إيـــــــــداع : ٢٠٢٠/٦٧٣٦

ترقيم دولـــــــي: ٤-٨١-٦٥٩٤-٩٧٧-٩٧٨

writer operation

شارك سطورك مع العالم

أصفر ذو حدين

نجاح عز الدين

The Writer Operation

شارك سطورك مع العالم

بسم الله الرحيم الرحيم

تقديم الأديب الناقد فوزي الخطبا

نجاح عز الدين الطويل أديبة موهوبة، وصاحبة حسّ مرهف، تكتب الخواطر والنصوص المفتوحة والمقالات الأدبية، وهي متمكنة من أدواتها الفنية باقتدار، وراء ذلك ذائقة جمالية وثقافة وقراءات متعددة في مختلف حقول المعرفة.

وهي تجمع بين التخصص الطبي بأرقامه العلمي المجرد وبين السرد والخيال في فضائه المحلق، جاءت روايتها الأولى

(أصفر ذو حدين) أقرب إلى الرواية البوليسية وليست منها ولكن قريبة من تقنياتها، فهي ترسم أحداثها وشخصياتها بدقة وذكاء، وبخيال عالٍ أفاقه رحبة.

تجسد واقعًا اجتماعيًّا متخيلًا كما في الروايات البوليسية التي تتكئ على المغامرة والجريمة والقتل والفاعل والبحث والتحري والكشف، ولكن ببصمتها الخاصة بها ولغتها وسردها وتشكيلاتها الفنية وقدراتها التعبيرية، تتموضع هذه الرواية حول «سند» شاب يافع تخطى صعاب سنوات دراسة الطب وتصدى لها، ليقف حائرًا بين تخصصين، حتى أيَّده صديقه الشرطي جاد بالطب الشرعيِّ والخوض في علم التشريح

مقترحًا عليه السفر برفقته إلى ألمانيا لاستكمال الدراسة معًا.

يسير سند وفق قانون قد اقتنى كلماته من تجارب حياتية آلت به إلى هذه الرتبة من القناعة «البدايات صعبة حتى الاعتياد»، حيث مثَّلَ أوَّل أيام غربته ثم تأقلمه بعد اعتياد ثلاث سنوات من الدراسة وخوضه بالعمل في المشفى ببداية تعلمه في الصغر المشي حتى الركض.

تحدث جريمة قتل تتمثَّل باغتيال رجل عجوز ملقى على أريكة بيته، تجمع بين سند وجاد في عمل واحد، حيث إن جاد يقوم بعمله اللازم في التحقيق برفقة فريقه، ويتسنى لسند أن يكون مشرفًا على تشريح الجثة مع طاقم أطباء من بينهم الطبيبة سلمى، فتاة في الثانوية التي أسرته بحبها وبحبَّة خالٍ أسفل عينها الواسعة تزيِّن خدَّها الأيسر، شاء الوقت أن يفرقهما بكذبة خادعة وراء حقيقة تهديد من والدها لسند

دون إدراكها بذلك.

تبدأ رحلة البحث عن القاتل في مركز التحقيق عن طريق كشف شفرات برموز مبهمة منقوشة على قاعدة لعبة طاولة الزهر التي تبين أنها مصنوعة من الذهب ورموز على أدلة أخرى، فما السر خلف هذه الرموز؟

ومن خلال فتح أبواب المشرحة تتخذ الرحلة مسارها الثاني إلى غرفة التشريح وملاحظة عدم ثبوت لون الجثة ليبدأ ترسب الدم في الأوعية الدموية في الأجزاء السفلية من الجثة بفعل الجاذبية الأرضية وتوقف القلب ولكن وجود بقع دم بنفسجية في الأجزاء العلوية متفرقة وغير متتابعة تثير شكهم: هل تم تحريك الجثة، والأريكة ليست موضع القتل؟!

فما علاقة الذهب ليكون الحد الأول من الأصفر ويكون السبب في القتل والأداة المستخدمة في القتل؟ ومن يكون الجاني؟

ماذا عن بائعة أزهار دوار الشمس التي وصفها سند بضماد للجراح ومنبع للدفء فتكون أقراص الشمس الحد الثاني للأصفر الذي يجمع بين سند وسلمى مرة أخرى.

فكلاهما أصفر: «الذهب وأقراص الشمس»، حدين متناقضين؛ القتل السلبي والتوهج الإيجابي.

إن المكتبة العربية شحيحة في هذا النمط من الكتابة السردية على عكس العالم الغربي الذي ظهر فيه أعلام كبار (أجاثا كريستي/ ريمون شاندلر/ بول أوستر/ فريد فايمان/ ماري كلارك/باتريسيا كوونيل/ مانويل مونتالبان/ إيانا فيمنج/إدغار ألان/ دوو سايز/إستيفن كينج/دان براون) وسواهم، وحققوا شهرة واسعة وطبعت ملايين من أعمالهم وترجمت إلى لغات عديدة.

على الرغم أن جذور هذه الكتابة نجدها في العديد من كتب تراثنا ككتاب «ألف ليلة وليلة»، وكتاب «الأغاني» لأبي فرج الأصفهاني، وكتاب الأذكياء لابن الجوزي وكتاب «الفرج بعد الشدة» للقاضي التنوخي.

وقريب من ذلك حركة العيارين والشطار في العصر العباسي ونجد في تراثنا حكايات مبثوثة هنا وهناك.

إلا أن السرد من نوعية هذه الكتابة. لم يلق الاهتمام الكبير عند الروائيين العرب لأسباب عديدة منها أن المجتمع العربي يختلف عن المجتمع الغربي من حيث العادات والتقاليد والقيم والأعراف فالمجتمع الغربي يمور في الأحداث والصراع أو تناقض وما يكتنفه من جرائم ولصوص وقتل وجريمة منظمة وخطف ونهب وسلب.

إضافة إلى احتراف العديد من الكتَّاب الغربيين بامتلاك أدواتهم الفنية بمهارة في هذا الجنس السردي من الكتابة.

وينظر العديد من النقاد عندنا إلى أن الكتابة في هذا المجال أقل من السرد الروائي المتعارف عندنا.

إن الروائية نجاح عز الدين وظفت خبراتها العلمية وقراءاتها المتعددة في هذا السرد الروائي في غاية الدهشة والجمال في تناسق فني مازجة بين الأحداث وتداخل المونولوج والاسترجاع والتداعي بمهارة واقتدار، وهذا ما يجعلك تتابع مشاهد وفصول الرواية دون ملل أو كلل، في

دلالة واضحة على قدرة الروائية على نسج أحداث الرواية وخيالها المغموس في الواقع وقدرتها على الإثارة بأسلوب متقن ولغة مشوقة شفافة ومقنع برؤية الأديبة المتيقظة وبأسلوب الفنانة المتفننة التي تغتسل كلماتها من الواقع الاجتماعي ومعلومات علمية دقيقة بخيال سردي، ومجازات مضمرة، ورمز يشحن الذهن والعقل.

وإلى الأديبة نجاح خالص الاحترام والتقدير.

أما قبل:

لكلٍّ منا مكان نجد فيه أنفسنا، راحة تملأ جوفنا، سكينة تطفو داخلنا، بعيدًا عن شكوى ومصالح ونزاع البشر، تسمو فيه الروح، وتتمدد الآمال، تتحقق راحتنا الجسدية والنفسية، وأيُّنا لا يجد مكانه ويرسم على وجهه بسمة الأمل بعيدًا عن البسمة الصفراء وقناع البسمة المصطنعة.

أنت أيُّها القارئ، نعم أنت، أين تجد نفسك؟

فلكلٍّ منَّا ذاته.

خطوتُ الخطوة الأولى داخل مكتبة في آخر الطَّريق، فُرِّغَ محتوى جمجمتي، تناثرت همومي وارتسمت بسمتي، وبدأتُ أخطو خطواتي، في طريقي أجد أُناسًا، ذاك ربح، ذاك هُزم، ذاك ظُلم، وذاك عاش أحزانًا وتركها ومضى، نعم هي كتب على الرفوف، أنظر إليها وكأنها أشخاص،

بل أصدقائي في جوفهم نستسيغ المشاعر، أحتار أيُّها أسمع أولًا، سأبدأ من هنا، اشرحْ أيُّها الكتاب وعلِّمني.

في عالمي أرى كل شيء، لكنِّي لا أرى حريتي التي أنتظرها، كل زمان وكل عصر يتقدم إلى الأمام وهو لا يعلم معنى الحرية، لكن سأجد حريتي.

الناس تحاول رصد الآراء، لكن لا يرون شيئًا لقلوبهم البليدة.

سلامٌ لهذه الدنيا التي لا تنال حريتها، في كل عصر وزمان ويوم وأحلام، نحلم أن نرى حرِّيتنا في هذه الدنيا التي يسهل كسر قيدها رغم صعوبة التفكير بذلك...

هذا ما شرحه نيلسون مانديلا في رحلته الطويلة من أجل الحرية.

******

الإهداء

إلى من لا يكسرون الخواطر...

إلى من يغفرون تحت مسمى السَّلام...

نجاح عزالدين

عاشقة القلم N.٢٠٠٠-

الجريمة

وصل اتِّصال طارئ للشرطة لإخطار عن حادثة اغتيال رجل عجوز في بيته، سريعًا ما آضَ الاتصال إلى قسم المباحث لينطلق فريق مكون من خمسة أعضاء يترأسه جاد وزميله فادي إلى ساحة الجريمة، وأول ما أتمُّوه إبعاد تجمهر الناس حول البيت وتسوير البيت بالسياج، ثم ولجوا إلى الداخل؛ فإذا بجثة ملقاة على أريكة غرفة الجلوس، أمامها طاولة تتوسطها لعبة طاولة الزهر تخطت مرحلة البداية ولا يبدو أنه تم تحديد الفائز أي لم تنتهِ اللعبة بعد، وفي زاوية الغرفة مدفأة حطب.

عاين جاد الجثة عن بُعدٍ لعله يجد أي دليل على كيفية الغدر بها، لكن ما لبثت دقائق حتى جاءت سيارة الإسعاف لنقل الجثة إلى المشفى المركزي للتشريح.

أبلغ جاد الفريق بالبدء في جمع الأدلة:

«شرطي واحد أخمد لهب المدفأة سريعًا وأخرج ما فيها غير الحطب.

شرطي اثنين تفحَّص النوافذ في الطابق السفلي والعلوي.

شرطي ثلاثة خذ ما طُبِعَ من البصمات في عدة أماكن وابدأ بالطاولة.

أما أنت يا فادي تعال معي إلى الطابق العلوي لتفتيش الغرف لعلنا نجد ما يدلنا على أحد أفراد عائلته».

بعد إتمام الخطوة الأولى غادروا البيت وأحكموا إغلاقه، واتجهوا إلى مركز الشرطة ومعهم ما قاموا بحشده، لأن الخطوة الثانية تبدأ في المركز، فارتكاب الجناية يكشفه التحقيق الـمَرَضِي للشخص وسجل السوابق ومدى استقرار حياته الاجتماعية والأسرية والعملية، والحالة المادية من وجود ديون من عدمها، وأخيرًا وجود سوابق الاعتداء.

أما السيارة الثانية ففيها الجار العجوز الذي قام بالإبلاغ ومن يشاركه

في لعب طاولة الزهر، للتحقيق معه وأخذ المعلومات منه، لكن لأن الوقت متأخر كان عليهم أن يتركوه في غرفة منفردة للتحقيق معه صباحًا.

أما الفريق الثاني سيقومون ليلًا بتحليل الأدلة التي تم جمعها من البيت.

فيما انتقلت الجثة إلى قسم التشريح في المشفى ليقوم الطب الجنائي بإعطاء تقرير مفصل عن سبب الموت وبعد ذلك يتبقى العثور على الفاعل، إذا لم يكن انتحارًا.

******

١/يونيو/٢٠١٧

لم تكن سنوات دراسته الجامعية الأولى قد حققتْ ما يريد، حتى إنه يمكن وصفها بأسوأ سنواتِ حياته، لم يجد فيها ما يستنجد رغبَته بأن يُصبح طبيبًا أكثر من ناجح وأن يكون أكثرَ دراية وتوسعًا بالحقائق العلميَّة، كانت آمالُه تفوق الحقيقة، ولكن رغم ذلك استطاع أن يقترب من حلمه ولو قليلًا، ونال شهادته بعد ستٍّ سنوات من دراسة الطِّب، كانت روحُه دائمًا متلهفةً لمعرفة المزيد، حيث لم يقتصر على الموادِّ العلميَّة والنصوص التي في كتبه وكأنها تقول له: عليك بتلك السطور فقط، ومن جانب آخر لم يكن موفقًا بعلاقاته الاجتماعيَّة، إذ إنه لم يجد له أخًا وسندًا فترك العالمَ الخارجيَّ واقتصر على نفسه وعلى كُتبه لنيل شَهادة الطِّب لينطلق إلى عالمٍ يناسبه ويتوافق مع ميوله، أي يسير وفق ما يريد.

******

آلاف من الطلبة يرتدون زيَّ التخرج يجلسون في أماكنهم، وبدأ وَكيل الكُليَّة بتوزيع الدُّروع والشهادات بعد أن ألقى كلمة التَّرحيب وخطابه الذي أطاله بمدحِ نفسه أكثر ممَّا تحدَّث عن فعاليَّات الجامعة وإنجازات طلابها.

يجلس على كرسيِّه بزيِّ تخرجه، وخلايا دمه تتراقص بالدُّخول والخروج من وإلى قلبه، فقد حان الوقت أن يمتلكَ العالم بين يديه.

نعم العالم، ولو من خلال قطعةٍ من كرتونٍ مزخرفة بحروف اسمه محفوظة بقطعة زجاج، وكأنَّ ذرات الزُّجاج تعلَم مدى صعوبة وصول هذا الاسم إليها فتقوم بحمايته.

اهتزَّت جزيئات الهواء أمامه عندما سمَع اسمه يخرج من حُنجرة

المنادي، وتجمَّدت أطرافُه عن الحركة، ماذا أفعل الآن؟! آه يجب أن أتسلم شهادتي، وبدأت عيناه رحلةَ البحثِ عن عائلته حتى وجد حبات اللؤلؤ تتوهج على خدَّي أمه، انظري يا أمي، وصلت، غدوتُ طبيبًا، أتعلمين أن الشعور الذي غلبني الآن أعظم من كلمة طبيب؟! فرحتي لا تسعُ داخلي، وبسمتي كبيرةٌ لدرجةِ أنِّي أشعر بتمزق زوايا فمي.

انتهى حفل التَّخرج وذهب الجميع إلى بيته بعد الانتهاء من الغناء والطبول والتهاني والورود.

ركب سندٌ السَّيارة معَ والديه وأختيه.

قال والدُه وهو ينظر إليه من خلال المرآة:

- الحمد لله أن رزقني شهود هذا اليوم يا بُنَيَّ، فوالله كنتُ أنتظره منذ دخولك الابتدائي، أنار الله دربك، وجعل يدَيك وقلبَك سبيلًا لشفاءِ مرضاك.

- سلمتَ يا أبي، أدامك الله لنا أنت وأمي، فلولاكما بعد الله لَـمَا بدأتُ حتَّى أكمل.

- هل اتخذت قرارَك بأي اتجاه ستتفرع بدراستك؟

- أنا في حَيرة من أمري بين فرعين، ولكن سأحزم وأخبركم عمَّا قريب.

فارقت الابتسامة أمَّ سند وسألت:

- هل ستدرس خارج البلاد؟

- أمي لا تحزني؛ فدراستي بالخارج ستكون أفضل بكثير، إذا لم يكن على المستوى التعليميِّ فإنّه أفضلُ على المستوى النَّفسي بالنِّسبةِ إليَّ.

أوقف والدهُ السَّيارةَ قائلًا:

- سنتحدث في هذا الأمر لاحقًا.

في المساء، ذهب سند إلى غرفته واستلقى على سريره، أغمض عينيه وتذكر نفسه عندما كان يحتضر من ضغط الدراسة والتعب وكيف شُفِيَ

بعد ذلك، ثم ابتسم وتحركت شفتاه بحمد الله.

فتح مقلتيه وملامح وجهِه تشير إلى العزيمة، فلا يزال الوقتُ باكرًا للشفاء من التَّعب، «سأكمل دراستي في علم التَّشريح».

سيبلِّغ سند والديه بقرار سفره إلى ألمانيا وإبحاره في الطِّب الشَّرعي، ولكنه يتقلَّب على جمر من النار؛ فهو لا يُريد أن يُحزنَ أُمَّه بقراره، لأنه يعلم أنَّ أمه ستبتهج له، لكن حُزنها على فراقِه سنين أُخرى دون إجازة نهاية الأسبوع سيشعلُ قلبَها.

******

سندٌ شابٌّ في الرابعةِ والعشرين من عمره، له صفات جسدية ذات دلالة على القوة والحزم والهيبة، طويلُ القامة، ليس نحيلًا ولا سمينًا، بل عُوانٌ بين ذلك، أسمرُ البشرة، كثيف الشَّعر أسود، عيونه واسعة، جهوريُّ الصوت، لديه شارب ولحية كثيفة، شابٌّ صلبٌ لا يعجبه شيءٌ ولكنه ذو شخصية قوية، خطواتُه واثقة، ثابت الرَّأي شديدًا في الحق

متحمسًا، عصبي لا يحبُّ اللغوَ كثيرًا، بالإضافة إلى أنه يتَّصف بالحنان وطيبة القلب، شخصية متناقضة بملامح غامضةٍ.

هو بِكرُ والديه، يعيش معهم في بيت بسيط، أمامه حديقةٌ صغيرة محاطةٌ بالسِّياج، مزروعة بالخسِّ والنعناع وأشجار الكرز والزَّيتون.

والدُه يعمل مدرِّسًا للغة العربية في إحدى المدارس الابتدائية، ووالدته ربة منزل، تقضي جلَّ يومها في التنظيف والطهي، ثمَّ تهتمُّ بحديقة المنزل مع ابنتيها التوأم غير المتشابه في السَّادسة عَشَر من ربيعهم.

******

استند على نافذة غرفته سارحًا، وأطلق نظرةً نحو المدى البعيد وعنان ذاكرته إلى يوم بائد في أحد مدرجات الجامعة، حيث هناك الكثير من الطلاب يُصنِّفون أنفسَهم إلى فرق ومجموعات وفق معتقدات وأفكار لا نهاية لها، وفي ختام المحاضرة بدأت المناظرات بين الطلاب واشتد النقاش إلى أن تحولت القاعة إلى حلَبة صراع أو يجدر بالذكر إلى ساحة

معركة، يتعاركون بسهام ألسنتهم في حلقةٍ عمَّها ضبابٌ فتتخلَّلها علامات استفهاميَّة عاجزة، حتَّى أصابه سهمُ سؤالٍ غدا في ذلك اليوم كابوسًا سَلَخَ عن عينيه النوم، يهلوس بكلمتين سمعهما من أحدهم عندما عجز عن الإجابة «كن ديمقراطيًّا»، فيهرول إلى قلمه ليمحي ضعفه.

«فزع من حربه على رنين هاتفه».

ـ أهلًا.

ـ ما بك، ما بال صوتك؟

ـ غارق في جحيم أفكاري.

ـ ماذا دهاك؟ استفق!

ـ مقلة العين تنام، تنزف مياهًا تحرق الوجنتين، حالٌ خانق، كيمياء الرأس يكاد ينفجر، فيزياء الجسد يموت، أحياء القلب تقرع الطبول،

من أين أبدأ؟

- ابدأ من اللاشيء.

- هكذا حصل ولم يحصل، شيء فسد ولا يفسد، أريد النوم ولكن حمم البركان تحرقني، أريد إجهاض أفكاري ولكن تؤلمني، أوجاع صعاب جميعها تقتلني.

ـ وهل هذا مما حدث مع محبوبك؟

ـ ذاك شيء وهذا شيء يا جاد، حلم سيئ راودني.

« تَجمَّدت يدي، وجفَّ قلمِي، وتوقَّف تدفُّق الكلماتِ في ذِهني، ورقة بيضاءَ منذ ساعة، والكلماتُ تتزاحم، تتراقصُ أيُّها سيكونُ في البداية، إعصارٌ وسط الورقة يجمعُ الحروفَ في حركةٍ حلزونيَّة فماذا أُجيب؟!

سَأَلني أحدُهم: ماذا لو استيقظتَ يومًا وحيدًا في هذا العالم المُريب، بين حُطامٍ صَنعهُ قرارُك البغيضُ كونَك حاكمًا لا تصغي؟!

تركت قلمي، لا أجيب.

******

في ظلمةِ اللَّيلِ جسدٌ مُرهَقٌ على سريرٍ خشبيٍّ، عيونٌ تائهة في سقفِ الغرفة، قلبٌ يرتعش، دماغٌ يفكِّر، عقلٌ يتأمَّل، أفكارٌ تتناثرُ فوق السَّرير، أسفل السَّرير، خلف الباب، وتحت الوسادة، غُصْن يطرق النَّافذة خائفًا من غضب السَّواد، أتى سيِّدُ الظَّلام ليأسرَ غُرفَتي بالسَّواد، ويتجسَّد دِماغي مُتخفِّيًا، حتَّى ينقضَّ عليَّ منتحِلًا تفكيري، ينتظرني مُغمضَ العَينين، وَكأنَّه رجُل مُسن مُخَضرمٌ حكيمٌ يمسحُ شاربَه بسبَّابتِه وإبهامِه ويُشعلُ سيجارتَه في فمه، وينكبُّ عليَّ ببلاغتِه المعقَّدة أو بالأحرى الالتفات إلى أعمقِ التَّحرُّكاتِ الَّتي لا يُمكنُ الالتفات إليها وأنا في كاملِ وعيي وَطاقتي، مثلًا: ماذا لو لم يؤيِّدني أحد، وأقررتُ على ذلك رُغم الرَّفض، كالَّذي يَرى نَفسه على صَواب، ومَن حَوله على خطأ، ويبدأ بتعدادِ شَكواهُم فيظُنُّ نفسَه يفهم وهم لا يدركون، ولا يذكر أنَّه هو الَّذي وضع تِلك

الحدودَ والحواجز، فقط يقدِّس تفكيره، فيبتعد عنْهم، وينعزلُ عنهم، ويشتكي لِلوحدة، أيُّ غباءٍ هذا؟

تصبَّبتُ عرقًا حتَّى ظننتُ نفسي على شاطئ البحرِ الأسود لأرتطمَ بزجاجةٍ تحمل ورقةً، مكتوبٌ في طيّاتها: «كُن دِيمُقراطيًّا، أنتَ في حُلم، اكسِر الزجاجةَ».

لأستيقظَ على صوتِ كأس ماء وضعْتُهُ بِجانبِي قدْ كَسَرته قطَّتي.

سأذهبُ إلى الشُّرفة، سأرمي حبالَ أفكارِي ليلتَقطَها غُصْن النَّافذة، فيحترق، أرأيت؟ مات وَرِعًا خائِفًا من غضب السَّواد، هواءُ الأرضِ يغسلُ صَدري، دموعُ السَّماء أنبتت بُذور راحَتي، خصلاتُ شعرِي ترقُصُ أملًا، ها هو رَبُّ العِباد أنقذَني من غرقِي، الآن سأعودُ إلى النَّوم فلتذهبْ أفكاري وسؤالُ أحدهم إلى الجحيم.

- كن مع الله ولا تبالِ يا سند.

وغاص في نوم عميق دون ترك كلمة لصديقه.

******

استيقظ من شروده على اتصال من جاد وكأنه يقرأ أفكاره.

ـ أهلًا.

ـ ماذا تفعل؟

ـ أحاول النوم.

ـ حسنًا، هل فكرت فيما قلت لك؟

أجاب مترددًا وبصوت خافت، فسيد الظلام لم يغادر ما زال يأتي كل ليلة:

ـ يبدو أني سأُقبلُ على هذه الخطوة.

ـ لا تخشَ، فهم يدركون مسبقًا بأنك غارق في مستنقع تردد، ومؤكد

سيقفون بجانبك.

******

«جاد رفيق سند منذ الثانوية، درس في كلية الشرطة بألمانيا يقتفي خطوات والده، عمل ضابطًا في الشرطة عامين، والآن يريد العودة بعد إجازته المؤقتة ليكمل في التحقيق الجنائي، وقد اقترح ذلك على سند فيكون سندًا له».

******

- أتمنى ذلك، الجامعة ستبدأ خلال أسبوعين، يجب أن أسرع في الانتساب.

- كنت أود أن أخبرك بذلك ولكن أريد أن تأتي معي غدًا لإجراء الفحوصات اللازمة ثم نقدم أوراقك.

- فحوصات ماذا؟

- أخبرك غدًا، سآتي في العاشرة صباحًا إلى موئلك.

- حسنًا، أراك في الغد.

******

استيقظ عند الثامنة والنصف على إثر صوت خرير الماء، هبَّ إلى النافذة متثائبًا، لَقيَ والده يسقي الزرع بانهماك.

دخل إلى الحمام ليغتسل سريعًا وجفَّف شعره، إذ إنه مجفف من الجوانب والسوالف، تاركًا غرَّة قصيرة نسبيًّا إلى الأمام فيصففها إلى الخلف بطريقة عشوائية، وارتدى سترة باللون الأسود وتحتها قميص أبيض وبنطال أسود وحذاء أبيض، ورشَّ عطره وخرج من الغرفة ليبحث عن والدته، فعثر عليها تعدُّ القهوة.

مقبِّلًا يدها:

- صباح الخير أمي.

- صباحك طيِّب يا مشرق الجبين، والدك في الحديقة، اذهب عنده وسألحق بك.

خرج من الباب الخلفي إلى الحديقة قبَّل جبين والده، وسأله عن أسماء بعض الأوراق الخضراء التي نبتت حديثًا.

جاءت والدته وهي تحمل القهوة، فقال سند:

- حسمتُ أمري لألتحق في الطب الشرعي بألمانيا.

نظر والده إلى زوجته فإذا بها ترسم ابتسامة صغيرة يتخللها الفرح والحزن معًا، ولم تنبس بحرف للحظات حتى قالت:

- بأمان الله.

- أبرفقة جاد؟

- نعم يا أبي، سيعود ليتدرب في التحقيق الجنائي.

ثم نظر إلى ساعته متابعًا كلامه:

- يجب أن يأتي، فالساعة العاشرة الآن، سأذهب معه لإتمام كشوفات تلزمه.

ردَّ والده بتساؤل:

- كشوفات؟!

جاء صوت من بعيد:

- نعم كشوفات يجب أن أرفقها مع أوراق عملي هناك. فتحولت الأنظار إليه.

فإذا بجاد يصل!

طويل، بشرته بيضاء مرتديًا قميصًا أبيض وجاكيت أسود طويلًا وبنطالا بيج وحذاءً بيج، وكان مصففًا شعره إلى الأعلى خفيف الجوانب، مناسبًا لوجهه الطويل الذي يوحي بالجدية ومدى ثقة الرجل بنفسه.

قاموا بترحيبه ودعوته إلى فنجان قهوة.

قال والد سند:

- وما تلك الكشوفات يا بني؟

- جراحة وعظام ورمد وجلدية وعيِّنة من الدَّم، حتى يُسْمَح لي بالعمل لتحديد اللياقة الطبية.

ثمَّ خرجوا...

(٢) أبريل ٢٠٢٠

سند:

اعتدتُ بعد عودتي من العمل أن يقصَّ عليَّ جاد حكاياته مع الجرائم، سواء كانت سرقة أم غير ذلك؛ ولكن أكثر ما يشدُّني القضايا الباردة التي يصعب حلُّها لنقص أدلتها، إذ تُجَمَع الأدلة المتبقِّية ويُعاد تحليل أسبابها، وفي كثير من الأحيان لا يتوصلون إلى حلول ونتائج قاطعة، أحبُّ مساندة جاد ليلًا وأقترح عليه ما يجول في فكري لعلِّي أسانده قليلًا؛ ولكن دائمًا ما كنت أتعجب من فطنته وذكائه، فهي أكثر السمات التي يتميز بها فريق عمله.

******

ذات مساء كنت قد أنهيت دوامي في المشفى، وكان الجوُّ باردًا قليلًا

وهذا ما أفضله، فقررت أن أعود مشيًا إلى البيت، وكان جاد قد أخبرني سالفًا أنه في البيت منذ وقت وأراد تحضير الطَّعام، فطلب أن أحضر معي المشروبات.

«دائمًا ما تكون البدايات صعبة إلى أن نباشر بها، فنعتاد وننسى صعوبتها وننسى كم مضى من أيَّام وأسابيع ونحن نخطط متى سنبدأ ونرتب جدولًا منظمًا لأعمالنا ليس لتطبيقها، وإنما فقط لإرضاء ضميرنا، فأول البدايات بدأناها جميعنا عندما كنا أطفالًا نتعلم المشي، كما قالت لي أمي من قبل إنها كانت تمسك يديَّ أولًا ثم أصبحتُ أمسك بحواف الجمادات من حولي كالطاولة مثلًا حتى حرَّرتُ يديَّ ومشيتُ وحدي دون اتزان، أمشي خطوتين وأمي تصفق لي من بعيد، ثم أقع أرضًا وأعيد الكرَّة حتى تعلمتُ المشي.

أو ماذا عن بداية مذاكرة درس جديد تعلمته في المدرسة، إذ كنت أُقنع نفسي أنَّ أول عشر دقائق فقط هي التي سوف تكون صعبة ثم أعتاد.

فهذه من أبسط البدايات التي أذكرها.

هأنا الآن بعد مرور ثلاث سنوات في دولة بعيدة أعيش مع صديقي جاد ببيت مريح مكوَّن من طابقين وأرض خضراء حوله، كانت بدايات التأقلم المعيشي صعبة من جميع النواحي، أما الآن فلا يوجد شيء صعب، فقد اعتدت كل شيء هنا وأنهيت تدريبي، وأعظم ما في الأمر أني شغوف بوظيفتي».

دخلت البيت ومباشرة إلى المطبخ، وضعت الأكياس على الطاولة وقلت وأنا أفرك بيديَّ: ما أشهى هذه الرائحة!!

فردَّ جاد:

- قد وصلت، هيا اذهب بسرعة بدِّل ملابسك وتعال لنأكل.

مشيت لأفتح الفرن لأرى ماذا يطهو؛ ولكن سرعان ما ألقى عليَّ ملعقة خشبية كانت في يده وقال صارخًا:

- لا تفتح إنه دجاج متبل وبجانبه البطاطا المشوية، حتى تنتهي سأُعِدُّ سلطةَ الخيار باللبن، اخرج سريعًا من هنا.

سمع جاد هاتفي يرن، قرأ على الشاشة: المشفى، فنادى عليّ:

- سند هاتفك يرن.

- من المتصل؟ هاته..

- المشفى.

**نعم أنا... الطبيبة سلمى ومرام والطبيبة ماريا والطبيب بيتر استلموا المناوبة... نعم... حسنًا... إلى اللقاء غدًا.

أغلقتُ الهاتف وأنا أعيد ما قاله المدير في رأسي، هل حقًّا سأكون على قدر المسؤولية؟ فهذه المرة الأولى التي سأتسلم فيها الإشراف الكامل، دائمًا ما كنت أعمل تحت إشراف أحد الأطباء، أنتظر هذه اللحظة منذ البداية، فحتمًا لن أبقى بمكاني؛ فقد عملتُ جاهدًا لأنال هذه الفرصة

وقد نلتُها.

انتشلني صوت جاد دون أن أفهم ما قاله.

- ماذا قلت؟ لم أسمع.

- هل وقعت على رأسك، ما بك؟ ما الذي أراده منك المدير؟

- غدًا أول يوم لي في المقر التشريحي لأكون مشرفًا في تشريح جنائي لجثة تم هدرها في ظروف غامضة، وكما أخبرني أن الجثة لرجل قد تعدى الخمسين يعيش وحده ببناء صغير يقع على طرف شارع العرب في مدينة برلين، وقد اكتفى بهذا الكم من التفاصيل ولم يخبرني المزيد.

- نعم، قد كنا اليوم في ساحة الجريمة وقامت الشرطة بتدوين وقائع الحادثة المؤسفة، وقمنا بإحاطة المكان بالسياج حتى نكمل غدًا، فنحن لم ننتهِ بعد من جمع الأدلة، ولم نجد أي طرف خيط لنصل إلى المجرم على أمل أن نستطيع غدًا مسح البيت بأكمله.

- ومن الذي دلكم على البيت؟

- جاءنا اتصال من أحد جيرانه في عمره تقريبًا، قد ذهب إليه ظهرًا - كما يفعل دائمًا - لإكمال لعبة طاولة الزهر كانوا قد بدأوها في اليوم السابق، ولكن أنت لم تخبرني من هم الأطباء المساعدون لك!

- الأطباء الذين ذكرتهم الآن للمدير.

فقال جاد مستهزئا:

- وهل أصبحتَ تتقن الألمانية جيدًا لتعمل مع الطبيب بيتر وزوجته ماريا؟

فأجبته بغرور:

- سترى.

وابتسم في وجهي ابتسامه تملأها السخرية ثم ضحكنا، فهو يعلم وأنا أعلم أنِّي لا أُجيدُ اللغة جيدًا.

******

في صباح اليوم التالي استيقظ جاد نشيطًا عند الساعة الخامسة وذهب إلى غرفة سند وقال مستعجلًا:

- سند هيا استيقظ، لقد تأخرت على المشفى.

قام سند فَزِعًا كاد يسقط عن السرير باحثًا عن هاتفه ليرى الساعة، فلا تزال الساعة الخامسة والدوام يبدأ عند الثامنة، نظر سند إلى جاد نظرة تملأها العصبية، أما جاد فأوشك أن يغمى عليه من الضحك مما رآه من ردة فعل سند، وقال وهو لا يزال يضحك:

- قُم سأعد القهوة، فاليوم مليء بالعمل.

وخرج من الغرفة.

لحق به سند بعد دقائق إلى الشرفة؛ لاحتساء قهوة الصباح وقال متثائبًا:

- لماذا استيقظت اليوم بكل هذا الحماس؟

- لا أعلم، يبدو أني متشوق لأحداث طيات ساعات اليوم.

- وأنا ما ذنبي لأستيقظ معك؟!

- في الحقيقة أريد أن أسألك سؤالًا.

وأكمل مترددًا:

- لماذا سمحت لسلمى أن تكون بفريقك، ألا يكفيك ما حدث في عامك الأول هنا؟!

- لا يهمني؛ فقد اعتدت وجودها في المشفى كأنها غير موجودة.

- أنت تكابر يا هذا، لا تكن ساذجًا، تفرقتما في المناوبات والآن ستعملان في نفس الغرفة.

- تركيزنا سيكون على الجثة بضع ساعات، لن أشتت نفسي بشيء آخر وعملي وجهدي يذهب هباءً منثورًا.

- ألم تفكر في إخبارها الحقيقة، فهي بالكاد تكرهك الآن.

- بالبداية انتظرتُ أن تَعْلَمَ مَنْ والدُها، ولكن لم يخبرها، وإذا أخبرتُهَا بحقيقة الكذبة التي كذبتها عليها ستكرهني أكثر، يكفيني مقدار كرهها لي.. لا أحتاج إلى المزيد، بالإضافة إلى أن إفصاحي لها لن يغير شيئًا ما دام عقل والدها يعمُّه الخراب هكذا، ما زلت لا أصدق الذي فعله وكيف لهذا الوقت لم يكن قويًّا كفاية لسلب خدعة من خدعه الطاغية ويتركه هكذا مرحًا ومغرورًا، إذا شاء القدر أن يجمعنا مرة أخرى سيجمعنا ولو بعد فوات الأوان.

- ولكن لن أسمح لحالك القديم أن تعود من جديد، حتى لو اضطررتُ إلى أنْ أفتعل مشكلة في عملك لأفصلك منه.

قال وهو ينهض عن كرسيه ليدخل إلى الداخل:

- لا تكن ساذجًا كسذاجتي.

تنهَّد جاد في مكانه وأخذ يحدث نفسه: «كيف لو يعلم أن والدها جاء إلى ألمانيا مباشرة عند ابنته ليحميها منه، وخوفًا من أن تعلم الحقيقة

وهي بالكاد تحتاج إلى أن تحتمي منه...»

يا إلهي لقد تأخرت.

ودخل هو الآخر.

******

القسم الأول

يسير بخطوات ثقة غير مغترَّة، يُظهرُ غُرَّة أسنانه، وبيده فنجان قهوة سادة يلتقط عبقها بشغف وشدة، فتنة سمارها تداعب أقراص خلايا دمه.

دخل الغرفة المقصودة مُرَحِّبًا بالفريق وسألهم متعجبًا منهم كيف استعدوا للصباح باكرًا بهذا النشاط، وقد سبق أن كانوا في المناوبة الليلية، فأجابته الطبيبة مرام بأن المدير قد عفا عنهم ذلك.

قال سند موجهاً كلامه إليهم جميعًا:

- مؤكد أن المدير أخبركم بالحادثة التي حصلت، وقام فريق أطباء آخر باللازم للجثة ليتسنى لنا اليوم فحصها، يمكن أن ننتهي اليوم من التشخيص، وربما يمتد معنا لعدة أيام وهذا يعتمد على مقدار جهدنا

وعلى كيفية غدر الجثة.

بالبداية أريد أن تعلموا أن غرفة التشريح هي الغرفة التي تهتم بالحدود الفاصلة بين الحياة والموت، قد كثر الموت في أيامنا هذه، وإن كان سبب الموت هذا غامضًا فيأتينا على عجلاتٍ تمرُّ بممر التحميل، وهذه الأوراق التي بيدي تحمل تفاصيل دقيقة للجثة، فعند وصولها بالأمس تم وزنها وقياسها، وفي هذه الصفحة تم التقاط صورة رأسية للجثة لدى وصولها إلى المركز، والصفحة التي تليها توجد البصمات، وهي الآن في السرداب البارد سيأتوننا بها لنباشر فحصها، ولكن قبل أن تأتي أريد أن أسألكم: قد يأتي الموت بأشكال عديدة لكن للموت وجهان فقط، مشيرًا إليهما بالسبابة والوسطى؟

فليكن حديثنا بالإنجليزية يا أصدقاء.

أجاب الطبيب بيتر:

- أظن أن أحدهما الموت السريري.

ردَّ سند متسائلًا:

- وماذا تقصد بالموت السريري؟

- الموت السريري ببساطة هو الموت الجسدي أي توقف التنفس ودوران الدم... إلخ.

- نعم، والموت الآخر ما هو؟

سلمى تقف وكأنها تحمل الإجابة ولكن مترددة لمخاطبة سند وقد لاحظ هو ذلك، فقال:

- يجب أن نركز وندع خارجًا كل ما يفصلنا عن التركيز.

سكت قليلًا ثم قال مردفًا:

- هل من أحد يعرف الموت الثاني؟

أجابت سلمى موجهة نظرها نحو الفريق متجاهلة النظر باتجاهه:

- الموت الثاني هو تحلل الجسم البشري ويقصد به الموت الجزيئي.

- نعم صحيح.

جاءت الجثة ووُضِعَت على الطاولة المخصصة لها ووقفوا ملتفين حولها باندهاش كبير، سألت مرام وعيونها ما زالت معلقة على الجثة:

- لكن ما العلامات التي كانت على الجثة منذ البداية؟

أجاب سند:

- كان هناك زبد رغوي حول الشفتين وعند فتحتي الأنف، بالإضافة إلى سيلان لِلُّعاب، هذا ما تمت ملاحظته من النظر إليها سريعًا.

ماريا: كم مضى على الجثة حين وصل الإسعاف؟

- لا نستطيع معرفة ذلك من مجرد النظر إليها، لكن ما لاحظناه أن وجهه كان شاحبًا مائلًا إلى البنفسجي قليلًا، وهذا يعني أنه لم يمضِ الكثير من الوقت؛ أي في حدود من ساعتين إلى ثلاث...

قاطعته سلمى:

- لا يمكنك تحديد الوقت هكذا من لون وجهه فقط. ثم أشارت إلى الصورة الرأسية، وأكملت:

- انظروا، توجد بقع زرقاء داكنة في الأجزاء السفلية من الجثة؛ أي ترسب الدم في الأوعية الدموية فيها، وبدأت من الأسفل بفعل الجاذبية الأرضية بسبب توقف القلب، وأظن أنه مضى على موته من نصف ساعة إلى ساعة.

نظر سند إليها مطولًا، كيف لها أن تحدثني بهذه الطريقة أم أنا فقط الذي شعرت بذلك، هل أصبحتُ حساسًا تجاهها، أم أنها لا تعيرني اهتمامًا وفقط تركز في عملها؟ لم أكن أعلم أن وجودها سيكون صعبًا، فمنذ سنتين لم تلتقِ أعيننا لتخلَّ الموازين.

قال وهو ما زال شاردًا بتفكيره:

- يمكنكم أخذ وقت فاصل لنصف ساعة، اشربوا الكافيين لتستعيدوا طاقتكم، كونوا بالموعد.

تقف مرام وهي تحمل الأوراق وسألت:

- هل يمكننا أخذ الصورة في الاستراحة لعلنا نجد شيئًا؟

- افعلوا ما تشاؤون.

كانت سلمى آخر من همَّ بالخروج حتى أوقفها سند وقال لها:

- سلامٌ من قلبٍ لم يسطع أن يكون قالبًا لقلبك.

- قدرك ليس برفقتي، فمنك السلام وإليك.

ثم خرجت.

زمَّ شفتيه وبدت أصابعه تبحث عن سيجارته في جيبه يفرغ بها همه، خرج مسرعًا إلى الساحة الخارجية للمشفى فقد كادت الغرفة تكون كقبضتين تضغطان عليه في كلا الاتجاهين، جلس على سورٍ ينفخ

سيجارته ونظره في نقطة ثابتة حتى رفع نظره إلى عربة لعجوز تَزَيَّن شعرها القصير الشائب بزهرة الشمس، حيث تبيع أزهار دوار الشمس على ناصية الشارع الرئيسي، عصفت به الذاكرة إلى الثانوية حينما كان يشتري زهور الشمس لسلمى مقابل حجج يأتي بها من حيث لا يعلم يوميًّا منذ أن سمع حديثها مع صديقتها أنها المفضلة لها.

******

انتبه على يد تلَوِّح أمامه فإذا بالعجوز تقف قبالته، نظر إليها ثم نظر إلى العربة، فقال متلعثمًا:

- قد تتعرض عربتك للسرقة!

- السعادة تُعْطَى لا تُباع.

رفع حاجبيه.

- لم أفهم!

- لن يأخذ منها إلا من يريد أن يهبها لشخص ما، فالابتسامة والعيون التي تبرق لرؤيتها تزرع داخلي روحًا تنهض من جديد، هذا هو مكسبي، فعمري هذا لا يحتاج إلى المال أكثر من نفس آخُذُهُ براحة واطمئنان، هل سمعت إلى أحد الخرافات التي تقول: «كل ضحكة طفل جديد تولد جنية جديدة»؟ ثم أخذتْ نفسًا عميقًا وأكملتْ:

- أتدري يمكن أن تباع في حال مصلحة ما وأخذ أحدهم العربة مقابل المال؛ ولكن سرعان ما تذبل ولا يأتي بغيرها، فالورود تعرف خليلها.

- صدقتِ.. يبدو أنك تحبين الفلسفة؟

- قضيتُ شبابي أقرأ كتب الفلسفة والباقي نتاج ما خضته في سنوات مضت، لا أحبها كثيرًا ولكن أظن أنها مليئة بالحقائق والتفاصيل الدقيقة التي يغض البصر عنها.

- وهل هناك حقيقة باختيارك زهور دوار الشمس فقط دون غيرها من الورود؟

- إنها مليئة بالطاقة الإيجابية ونور لونها من لون الشمس، حيث ما كانت يكمن الشغف والحب في الأرجاء، بالإضافة إلى الروح الرياضية التي يمتلكها محبوها.

- ماذا عن غطرسة محبيها؟

- لا يمكنك رؤية غطرسة صاحبها إلا إذا نُهِشَتْ روحه وتكسرت أضلعه، يبدو أنه لديك معرفة سابقة بهذه الزهرة، هل يمكنني القول إنك تعرضت لغطرسة فتاتك؟

- قبل سنوات أم قبل قليل لا أعلم، أنا مشوش لا أدري ماذا أفعل.

- يمكنني أن أنصتُ لك.

ثم ضحكتْ متباهية وقالت:

- لدي قدرة جيدة للاستماع.

ابتسم هو الآخر وقال:

- كلامك جميل، وحقًا شعرت بالراحة بالحديث معك، لكن سرد قصتي يحتاج إلى وقت، وقد أوشكت الاستراحة أن تنتهي.

- هل أدعوكَ إلى كأسِ شايٍ على الحطب أعلى الجبل؟

ردَّ ضاحكًا متعجبًا:

- نزهة؟!

فأجابت مبتسمة:

- لا، أنا أسكن في كوخ خشبي مع زوجي المقعد فوق تلة جبل، عندما تشعر أنك في حاجة إلى الحديث والبوح بما داخلك أنا موجودة.

- غمرتني بلطفك يا خالتي، أراك لاحقًا.

ثم استدار ليذهب حتى أوقفته من كتفه وقالت بنبرة تلامس إحساسه:

- السعادة نعمة وهبة يا بني، إن لم تصنعها أنت فلن تأتيك على طبق من ذهب.

ثم رَبَتَ بيده فوق يدها التي على كتفه وهزَّ رأسه موافقًا وذهب.

******

مركز التحقيق

في غرفة كبيرة مليئة بالأجهزة والطاولات وفريق العمل، يقف جاد أمام جهاز يظهر بصمات الأشخاص التي لامست أرجاء مكان الحادثة مؤخرًا قائلًا:

- هذه بصمات لسبعة أشخاص، ولكنها ليست واضحة إما بسبب ارتداء القفازات وإما لمحاولة مسحها، والذي يمكننا أن نتأكد منه أن هذه جريمة قتل من قبل عصابة وليست قضية شخصية بين اثنين أو مسألة انتحار.

ثم أردف:

- أرسلوا العجوز إلى الغرفة المنفردة للتحقيق وأحضر معك يا فادي الملف الشخصي لكليهما.

قال فادي وهو يقلِّب بالملفات على طاولته:

- بحوزتنا ملفات للمجني عليه، أما جاره فلا نملك أية معلومة عنه، ولم نتمكن من تجهيز ملفه.

- تجهزونه بعد التحقيق، أحضر الملف والحق بي.

بدأ جاد يمشي ذهابًا وإيابًا في الغرفة، وينظر إلى العجوز بتفحص من الأسفل إلى الأعلى، بالكاد لم تثبت عليه أية تهمة، وما قام به فقط الإبلاغ؛ ولكن لا بدَّ من الشك ولو قليلًا.

- منذ متى وأنت تقطن في البيت المجاور؟

- منذ ثلاث سنوات، ولكن ماذا؟ هل تتهموننا بقتله؟

قال ذلك وهو يضرب قبضة يده على الطاولة.

- اهدأ، فقط أجب عن الأسئلة بشكل صحيح ثم سندعك تخرج إن لم تكن لك علاقة بذلك.

أسند ظهره إلى الكرسي:

- ماذا تريد أن تعلم، هيا أمطر بأسئلتك التي لا جدوى منها، وهأنا أقول لكم، تتركون المتهمين في الخارج لقضاء حديث فارغ معي.

وأكمل ساخرًا:

- لو تُرِكَ لي الأمر في اختيار المكان للمسامرة لاتخذت مقهى يطل على النهر وقمنا باحتساء القهوة... وقبل أن يُكمل، صرخ فادي:

- الزم حدَّك، يا لك من عجوز متعجرف.

أشار جاد بيده لفادي أن يهدأ.

- ماذا تعمل؟

- كنت أعمل في مصنع لتشكيل البلاستيك، أما الآن في هذا البلد تراني فقط أشاهد الأفلام القديمة بالأبيض والأسود أغلب وقتي، وعند الظهر أذهب للعب مع جاري جميل - رحمة الله عليه - ماذا تريد أكثر

من عجوز تخطى الخمسين؟

- إذًا كيف تدير أمورك وأمور بيتك؟

- ابني البكر يعمل في بلد آخر ويرسل إليَّ المال كل فترة وحين.

- لِمَ لستَ معه؟ ما الذي عصف بك إلى هنا؟

- ما هذه الأسئلة بحق الجحيم، أتريد أن تعرف كم مرة أبصق في اليوم؟!

- أجب عن السؤال من فضلك.

- جئت أنا وسالم قبل سنتين إلى هنا ولم يجد عملًا موفقًا له، فقررنا السفر إلى ماليزيا، ولكن أوراقي كانت ناقصة ولم يسمحوا لي بالسفر، فبقيت هنا وابني يأتي إليَّ في الإجازات.

- أيمكنك أن تحدثني عن جميل قليلًا، حتمًا أصبحت تعرفه حق المعرفة، فلم يكن لعب طاولة الزهر بالصامت يومًا.

- كان عجوزًا متكبرًا متباهيًا، بالرغم من أنه وحيد، فإن الكثير من الناس يحبونه ويحبهم ويقدم الخير للجميع، عجوز تراكمت عليه السِّنون كأي عجوز خطت التجاعيد وجهه والشيب يغزو ذقنه، ولا أدري لماذا لم أكن أستلطفه كالباقين، كنت أرى الكبرياء ظلَّه، ربما كانت عائلته تراه بعيني رغم جهلي بهم وبمكانهم فلزم بيته وحيدًا، أتعلم لم يعترف بخسارته أمامي في كل مرة أغلبه فيها، يا له من مغرور.

لم يستطع جاد أن يحدد من خلال كلام أبي سالم أهي الغيرة التي تحرقه هكذا، أم هناك مسألة شخصية بينهما رسمت لوحة بألوان باهتة في رأسه، ولكن لا يمكن أن يكون كلا السببين دافعًا له لقتله.

-هل يغلبك الشك بأحد ما أو عدو كاره أو مدين طرق باب بيته؟

- من أين يمكنني أن أعلم، كل ما أعرفه عن حياته يقتصر على كوب شاي أو فنجان قهوة، وكرسي خشبي أمام كوخه الصغير وفأس يقطع به الخشب الذي يأتي به بسيارته الخردة الخرقاء بصوتها المزعج لمدفأته،

يحرقه شتاءً ويخزنه صيفًا.

لم يتفوه جاد بأية كلمة؛ فقد اكتفى بالنظر إلى فادي والتأكد من تدوينه الإجابات، ثم بدأ يقلب بالملف الشخصي لجميل ولكنه لم يجد أي دليل أو نفق يصل به إلى سؤال آخر يسأله أو إجابة تمكنه من إنارة النفق، فقط طريق مسدود.

تأفف أبو سالم قائلًا:

- أيمكنني الذهاب الآن، فلم أحبك أنت أيضًا، وهذا الثعلب الذي لم يكف من نظراته الماكرة؟!

قذف فادي القلم بوجهه وهو ينهض عن كرسيه وأمسك به من ياقته صارخًا بوجهه:

- لو لم تكبرني سنًّا ولم تكن على حافة قبرك لاقتلعت عينيك من مكانهما.

فرَّق بينهما جاد

- دعك منه يا فادي، وأنت هيا انصرف ولا تبتعد عن مكانك حتى يُغْلَقَ ملف القضية.

خرج أبو سالم وهو يعدل ياقته ويلغو ويشتم بكلام غير مفهوم.

وجه جاد سؤالًا إلى فادي:

- ما رأيك؟ آستطعت أن تمسك شيئًا.

- حادثة معقدة، لم أتمكن من ربط أي حبل حتى الآن، يجب أن نعيد تفتيش الكوخ ويلزمنا تصريح لتفتيش بيت أبي سالم.

- لا أعتقد أننا سنجد دليلًا في بيته، ولكن لا ضير من ذلك، نذهب إلى الكوخ أولًا وفي الطريق سوف أُجري اتصالًا على سند لعله توصل إلى شيء يساعدنا.

نادى فادي جاد باستفهام وهم يمشيان بممر الخروج.

- جاد!

ردَّ سارحًا:

- نعم؟!

- هل انتبهت عندما قال متهمون، لماذا لم يقل «متهمًا» ألا يمكن أن يكون يعلم شيئًا واحتفظ به لنفسه.

توقف جاد للحظة ليستوعب ما قاله...

- ألم توافق بصمته إحدى البصمات السبع؟

- لا، ولكن برأيي يجب أن نراقبه.

- العقبة في ذلك خلو المكان من كاميرات التسجيل، الأمر أشبه بمتاهة مسارها في الدرك الأسفل من الأرض ومخرجها أعلاها.

******

سلمى:

أحببتُكَ وامتلكتَ الدنيا، وكأن الدنيا وردة صغيرة بيدي، نَثَرَتْ عطرَها بين يدي وامتدت داخل أعماقي إلى أعمق بقاع قلبي، فأزهر داخلي بالورد الملون.

أحببتُكَ حتى عجزتُ عن وصف حبي لك لدرجة تفوق الجنون، بحديثك معي كنتَ ترمي وردًا داخلي ليزهر من جديد، مهما كتب قلمي وخط من الحروف يبقى عاجزًا عن وصف حبي لك.

ألتقطُ أنفاسي بصعوبة أمامك، وكم أتمنى أن يتوقف الزمن لأبحر في عينيك، كم أتمنى أن أبقى معك حتى نفسي الأخير وأنا بين يديك، وأنا أنظر إليك ويدي بيدك.

حتى جاء اليوم الذي أُجبِرْتُ فيه على الابتعاد عنك، كان يوم انطفاء قلبي واحتراقه، وابتعدت عنك وأنا أسيل دمًا وداخلي يتمزق وكأن روحي تصعد إلى خالقها.

كنت أحتاج إلى أن تشدني إليك وتنقذني، ذبل وردي وسقط رمادًا بعد أن شب الحريق داخلي.

ماذا حدث؟ كيف ذلك؟! لا أريد أن أتنفس، أين قبري ليحتضنني.

أصبحتُ لا مبالية، كرهت مَن حولي، وكلهم كانوا سببًا في بعدي عنك بالنسبة إليَّ، حتى الطفل على دراجته بأحد الشوارع كانت له يد في ذلك بنظري.

كنت أردِّد دومًا أنك لي ولن يتربع أحد غيري قلبك، بل كنت واثقة من ذلك.

كنت أشعر أن قلبي يلامس قلبك، كنت أشعر بك رغم بعدي عنك، لأني أثق ومتيقنة من تخاطر روحي مع روحك.

ذكرياتي معك هي التي أبقتني صامدة، والمصاحبة لابتسامتي بذكراك.

حتى تسللتْ أخرى إلى قلبك ورميتَ قلبي ينزف بعيدًا.

أُكذِّبك وأُكذِّب نفسي كل يوم، أنت أحرقت قلبي، أنت جعلته ميتًا لا يشعر.

أنت جعلتني باردة كالجليد في إحدى القارات المتجمدة، هل أكرهك أم ماذا؟!

لا أعلم ولا أدرك ما هو شعوري الآن، ذهبتَ مع أخرى وتركتَ قلبي وعقلي في جدال متواصل، رميتني في إحدى الزوايا لا أرى أين أنا ومن أنا...

كيف طاوعك قلبك لفعل ذلك، كيف استطعت؟! كيف تمكنت لا أصدق حتى الآن!!

أصبح شريط ذكرياتي معك كالسكين الساخن أحرق قلبي، أتعلم مدى ألم ذلك؟!

عقلي يكرهك، رَدَمْتُ حبي لك في قلبي وأغلقتُ عليه، والمفتاح أصبح

في إحدى بقاع الأرض التي لم تكتشف بعد، والمصيبة الكبرى أن قلبي ما زال يعشقك!

عن أي حب حدثتها لترضى هي بقلبك الذي هو ملكي؟!

القسم الثاني

من خلال فتح أبواب المشرحة التي لا يدخلها سوى عدد قليل من الأشخاص، حيث يعم الهدوء والسلام، وجسد خالٍ من الروح متعطِّش للدماء في كل خلية من خلاياه لكسر سرِّ غموض يلازمه.

- هل توصلتم إلى شيء يا ماريا من خلال الصورة التي بحوزتكم؟

- لاحظنا بقعًا تثير الاهتمام.

تمشي وتشير بإصبعها إلى جثة والفريق يصب اهتمامه على كلامها بتركيز فائق:

- في الوضع الطبيعي تبدأ البقع كما قالت سلمى من الأسفل إلى الأعلى كما هي أمامنا، ولكن تتوقف فوق نصف الساق بقليل، وإذا دققتم النظر في الجزء العلوي ترون بقعًا متفرقة ليست متتابعة، والمفروض

بعد مرور ساعات أن يثبت اللون...

توقفتْ قليلًا حتى تبلع ريقها، فإذا بسند بلهفة طفل ابتدائي يريد الإجابة سريعًا دون غيره من زملائه بالصف:

- هذا يعني أن الجثة تم تغيير موضعها بعد الوفاة وتحريكها، أي الأريكة ليست موضع موته.

أكمل بيتر:

- أي إنها جريمة قتل متعمد، أسفي عليَّ.

مرام بنبرة مترددة وبصوت خافت ولكنه مسموع متسائلة:

- ألا يمكن أن يكون انتحارًا وتراجع في آخر ثانية مترنحًا وسقط على الأريكة ميتًا.

سلمى بتساؤل:

- تقصدين خنقًا؟

أجابت مرام:

- أرى حول عنقه آثارًا خفيفة وغير واضحة، ولكن لا أعلم لو كان خنقًا يجدر أن تكون الآثار واضحة الرؤية.

ردَّ سند:

- هذا إذا كان الذي يستخدمه حبلًا سميكًا وقويًّا، أما بالحال التي لدينا يبدو أن الوسيلة التي استخدمها ليِّنَة وطرية وغير قاسية، ولكن هذه استنتاجات لنرَ الأحبال الصوتية.

علق بيتر:

- جحوظ العينين واحتقان الوجه يشير أيضاً إلى الخنق.

قال سند وهو لا يزال منهمكًا باستخدام المشرط لتفقد الأعضاء الداخلية:

- الأحبال الصوتية مقطوعة ويوجد أيضاً تهتك وتمزق للشرايين، حتمًا

تعرض للخنق ولكن كيف؟

قاطع صمتهم رنين هاتف سند...

- كيف يسير التحقيق؟

- لم نستفد منه شيئًا، نحن بالطريق متجهون إلى الكوخ، آه كدت أنسى، توصلنا إلى أنه قُتِلَ مُتعمَّدًا وبحوزتنا سبع بصمات ويعمل مركز الشرطة على الوصول إليهم؛ ولكن هكذا دون وجود أي دليل يكاد يكون مستحيلًا، ماذا عنك؟

- لقد استنتجنا من خلال بعض العلامات أن يكون قتلًا وأنه تم تحريك الجثة بعد هدرها، إما لإخفاء آثارهم وليصعب الوصول إليهم وإما أن العجوز صدَّهم وأشعل اشتباكًا بينهم وقُضِيَ به الأمر على الأريكة، بالإضافة إلى وجود علامات داخلية تدل على أنه تعرض للخنق، ولكن لا أستطيع أن أجزم كيف، أيمكنني اللحاق بكم الآن لتفقد المكان معكم، يخيَّل إليَّ أني سأستطيع تصوُّر الحادثة والتوصل إلى شيء بعد

رؤية المكان ثم نعود إلى المنزل معًا.

- أوشكنا أن نصل، أَسْرِعْ قليلًا.

أغلق هاتفه وقال لهم:

- يمكننا الاتِّفاق أنها جريمة قتل لا انتحار، وسنكمل العمل لاحقًا على هذا الأساس، سألحق بالشرطة إلى الكوخ، وأبلغكم بكل جديد.

كوخ صغير قديم مكون من طابقين أو بالأحرى طابق أرضي وغرفة نوم علوية، أكثر ما يميز كوخه اللوحات القديمة على جدرانه لمحاربين وقادة شاركوا في حروب ومجازرَ مضت، وأخريات لآثار قديمة مُدمّرة.

يمشي جاد ويداه متشابكتين ببعضهما من الخلف وإلى جانبه سند ينظرون بتفحص إلى اللوحات.

أصدر جاد صوتًا يدل على مدى تعجبه:

-ألا يبدو أنه عجوز مُلم بالتاريخ؟

- لوهلة شعرت أنني ببيت مُلازِم، هل هذه لوحة لأدولف هتلر؟ كل ما أعرف أنه خسر الحرب العالمية الثانية.

- كان العاملُ الأساسي لهزيمة ألمانيا؛ ويعود ذلك إلى تقديراته العسكرية المتصلبة الخاطئة ورفضه قبول المشورة.

- بالرَّغم أن الانطباع السائد عنه الذكاء والعبقرية.

- لا شك أنه يتميز بحنكة عسكرية كبيرة، وهذا ما تبين في المراحل الأولى من الحرب، إلا أنَّ المراحل الأخيرة أثبتت العكس، وواصل تمسكه الشديد بقدراته وسياسته التي اتبعها ورفض مشورة وآراء واقتراحات قادته الكبار، حتى بعد أن أصبحت الحرب حربًا خاسرة.

أدخل سند يديه إلى جيبه وتابع سَيره بتفقد اللّوحات:

- أتعلمُ أن من آثار هذه الحرب ما يخدم الإنسان كاللقاحات والعقاقير والمضادات الحيوية ومن أهمها البنسلين.

- الطائرة وجهاز الراديو والكثير من التطور لوسائل النقل والمواصلات وهذا ما هو إيجابي، أما ما هو سلبي القنابل الذرية وتوظيفها بطرق تقهر، ولكن أتدري ما هو أكبر أثر؟

- ما هو؟

- أن الدولار أصبح عملة عالمية متداولة من بعد ذلك.

قاطع فادي كلامه مسرعًا:

- تعالوا قليلًا.

لحق جاد وسند بفادي بتعجب.

- انظروا إلى اللعبة، تبيَّن معنا أن أحجارها من الذهب، هل لديهم علم بذلك أم هو مجرد حظ وكان كنزًا بين أيديهم؟!

أمسك جاد حجرين يقلب بهما بين يديه:

- بالأصل هي مِلْكُ مَنْ؟ جميل أم أبو سالم؟

يقف سند يحاول أن يفهم، وينظر إلى كل زاوية في المنزل، حتى وقعت عيناه على بقعة محترقة على الأريكة المقصودة.

اقترب ونظر إليها جيدًا ثم سأل:

- ما هذه البقعة؟ أأشعل أحدكم سيجارته هنا؟

أجابه جاد:

- يُمْنَع استخدام أي شيء في المكان، حرصًا على الأدلة من التخريب والتشويش، يمكن أن تكون من المدفأة...

ثم قال باستياء:

- البيت فارغ والأدلة لا تسمن ولا تغني، لنذهب إلى بيت أبي سالم.

ذهبوا مشيًا فبين بيته والكوخ زقاق قصير بمقدار عشرين مترًا.

طرق فادي الباب ولم يجبه أحد، فضغط على مقبض الباب فإذا

بالباب يفتح، ودخلوا البيت بحذر فلم يجدوا أحدًا، قال سند:

- ألم يعد إلى بيته بعد خروجه من المركز!

أجابه فادي:

- دعنا نعود غدًا، لقد تعبنا اليوم، فأنا لا أشعر بساقيَّ.

- وأنا أيضًا، اذهبوا أنتم، وأنا وسند سنعود مشيًا على الأقدام فمنزلنا لا يبعد كثيرًا.

- كما تشاء، تصبحون على خير.

- وأنتم من أهل الخير، إلى اللقاء غدًا.

كانت السماء خالية من النجوم ونسمات الهواء البارد تضرب وجنتيهما، نظر جاد إلى سند وقطع الصمت الذي ألمَّ بالطريق:

- بِمَ تفكر؟!

ثم قال ساخرًا:

- أما زلت عالقًا بالقبعة؟

- تعرفتُ اليوم عجوزًا تبيع أزهار الشمس على ناصية شارع المشفى، كانت تبدو كالملاك، وحديثها يبث الراحة، ولكن أشعر أن هذا اللقاء ليس مجرد مصادفة، أدرك بأنه أمر عادي؛ ولكن لا أستطيع فهم الشعور الذي غلبني منذ أن التقيت بها، أتفهمني؟

- أأفهم أني سأتعرف زوجة أخي؟

قام سند بضربه على كتفه:

- هلّا وضعت المزاح جانبًا.

أجابه وهو يكتم ضحكته:

- حسنًا لا عليك، ولكن أخبرني ما علاقة العجوز بك؟

- أتذكر عندما كنت أتأخر عن المدرسة لأشتري دوار الشمس لسلمى؟

هز جاد رأسه متفهمًا...

- أتعني ما علاقة تصادف أمر العجوز وأمر رؤيتك لسلمى في نفس اليوم؟ اسمع يا سند، ألم تخبرني سالفًا أن التفكير الكثير بالعواقب والأمور يعقدها، وتصل إلى حدٍّ تعجز فيه عن فهمها، اترك الحياة تسير واتبع التيار، ودع الأمور لخالقها، سيحل الله أمورك، ثم ستتذكر أيام جلوسك خاليَ الوفاض وأنت تضرب كفيك، فاجعل قلبك باردًا، وكن هادئًا وأحب الجميع ولا تحقد، وقدم الخير في كل فرصة تجدها، وحتمًا سيأتي يوم سعدك، ما زلت سترى الكثير في هذه الحياة، فإذا نُهِشَتْ روحك في كل مرة وتأثرت بصغيرها وكبيرها، فلن تكسب غير اهتراء أعصاب معدتك، وتساقط شعرك..

ثم نظر إلى الطريق الخالي أمامه وابتسم فسأله سند:

- لماذا ابتسمت؟

- كنتَ دومًا تقول لي مثل هذا الكلام، حتى حفظته وأعدته لك بصياغتك نفسها، ولكن لا أنكر أنك أفضل مني في هذا.

ابتسم هو الآخر وقال:

- الإنسان لا يستطيع أن يحل مشكلاته بنفسه ويراها معقدة كل التعقيد وأشبه بالتعجيز، ولكن إذا ما رأى عقبة أحد آخر وجدها مسألة رياضية سهلة، أشكرك لوجودك بجانبي.

- لن أتأثر، يا لك من مقزز.

ثم نفخ في الهواء وقذف الحجارة التي تصادفه بقدمه وردد:

- سبع بصمات، أحجار زهر من ذهب، بقعة محترقة، وعلبة صغيرة، وعلامات اختناق، كيف يمكن أن تكون ولماذا؟

- علبة ماذا؟

- علبة صغيرة لم يبقَ منها شيء، أخرجوها من المدفأة مع بعض قطع

الكرتون الممزقة المحترقة، كنتُ قد أَمَرْتُ بإخراج ما بالمدفأة غير الحطب، لا يمكننا إهمال أي شيء حتى لو مثقال ذرة.

******

سند:

قضيتُ الليل الطويل وأنا أتقلب في الفراش، لم يسمح سيد الظلام للنعاس بأن يطرق جفوني، كم أتمنى التخلي عن رأسي، جسد يمشي بلا رأس كم هذا مضحك!

ماذا عن العلبة داخل المدفأة، والبقعة المحترقة؟

لا يوجد غير تفسير واحد لهذا، ولكن سأتأكد أولًا، ثم وقعت عيناي على كتاب لإبراهيم الفقي بعُنوان «المفاتيح العشرة للنجاح» في مكتبة الغرفة، يبدو أن جادًا قد اقتناه من إحدى المكتبات في طريقه، فأنا أفضِّل اقتناء كتب تعرف الديانات، فبدأت أقلب في صفحاته، وتبين

لي أن الكتاب أنتجه إبراهيم عقب مقابلات عدة مع شخصيات ناجحة وأصحاب شركات كبرى حتى توصل إلى المفاتيح العشرة ذاكرًا إياهم مفصِّلًا لهم في صفحاته «الدوافع، الطاقة، المهارة، التصور، الفعل، التوقع، الالتزام، المرونة، الصبر، وأخيرًا الانضباط».

بالنسبة إليَّ لا أحب الكتب التي تصبُّ في علم النفس والتي تحث على النجاح، ليس لأني عدوٌّ النَّجاح؛ ولكن أظن أن لكل شخص ظروفه الخاصة ودوافعه الخاصة، أعلمُ أن العناوين، كالنيَّة وتحديد الأهداف والانطلاق بالعمل والشغف هي الخطوات الرئيسية التي يتبعها أي إنسان ناجح، ولكن ما يأتي بعد هذه العناوين في الكتب المحفزة أراها ذاتها، أفضل لكل إنسان يريد النجاح أن يصنع خطواته بنفسه عن قناعة وعن إدراك بعقله الباطني.

لا أن يتبع خطوات شخصيات بطولية بحذافيرها.

ربما نرى شخصًا قد وصل إلى أعلى درجات القمة بالنجاح، ولكن دون كل

هذه العناوين الرئيسية، وإنما بمعدنه وحظه المغناطيسي، فأصبحنا نردد كثيرًا الشخص غير المناسب في المكان غير المناسب لا العكس، الحياة غريبة حقًّا.

سمعت أذان الفجر، فكدت أغلق الكتاب لأذهب إلى الصلاة حتى شدَّتني خاتمة الكتاب ربما هي العبارة الوحيدة التي جذبتني واقتنعت بها:

«عش كل لحظة كأنها الأخيرة، عش بالإيمان، عش بالأمل، عش بالحب، عش بالكفاح، وقدِّر قيمة الحياة».

حروف الكتابة رائعة لمن يجهل من أين يبدأ فهو عبارة عن مدفع وهو القذيفة.

أعدت الكتاب إلى مكانه وصليت الفجر وارتديت ملابسي، ثم تذكرت دعوة بائعة الأزهار لكوب الشاي فقررت أن ألبي دعوتها قبل ذهابي إلى المشفى، لم أجد جادًا بغرفته، يبدو أنه خرج باكرًا، كم أتمنى أن أحصل يومًا على نصف نشاطه.

خرجت إلى طريق الجبل أبحث عن بيت بائعة الأزهار، فلم أجد فوق الجبل غير بيت واحد خشبي عتيق، خسر الباب لونه من كثرة الطرق عليه، شعرت أن البيت كان مليئًا بأصوات الأطفال في الأيام الخوالي وكأن جدرانه مستعدة لسرد ذكرياته، عندما وصلت إلى عتبة الباب كان في الطرف اليمين رجل عجوز ممدَّد على كرسي خشبي طويل، يبدو أنه زوجها المقعد.

ألقيتُ السلام، فإذا به ينظر إليَّ بابتسامة وكأن الشمس أشرقت في وجهه، واقتربتُ منه وسرعان ما خرجت زوجته من الداخل.

- لم أتوقع أن تلبي دعوتي يا بُنَيَّ، أتدري أني لم أتعرَّف اسمك؟

- سند، اسمي سند.

- اسمك جميل، معناه المروءة والشهامة كحالك أنت.

- سأذهب لأعدَّ الشاي، وأنت اجلس هنا وتحدث مع عمك قليلًا إلى

حين عودتي.

ثم قرَّبتْ لي كرسيًا آخر ودخلتْ.

- كيف حالك يا عمي؟

- نحمد الله بخير، إذًا يا سند، أخبرتني زوجتي أنك تعمل في المشفى، كيف يسير الأمر؟

- متعب وممتع في نفس الوقت، في المشفى أجد نفسي ولا أشعر كيف ينقضي اليوم..

ثم سكتُّ لحظة وأكملتُ:

«أحببت بيتكم كثيرًا؛ بعيد عن الناس وأعلى الجبل يعصف به الهواء النقي من كل جانب».

ثم جاءت خالتي بالشاي، وقدمته لنا وهي تردد أبيات شعر بصوتها الذي ذكَّرني بجدتي عندما كانت تغني لنا ونحن نلعب ونحفر بالتراب:

« ألا فاسقني كاساتِ شايٍ ولا تَذَرْ

بساحَتِها مَنْ لا يُعِينُ علَى السَّمَرْ

فوقْتُ شَرابِ الشَّايِ وقْتُ مَسَرَّةٍ

يزُولُ به عن قلْبِ شارِبِه الكَدَر»

الشاعر أبو مدين الديماتي

استأذنت منهم بعد الشاي حتى لا أتأخر عن المشفى، فقالت خالتي بنبرة حزينة:

- لم نجلس بعد، تعال في المساء أريد أن أريك شيئًا.

- إذا سمح لي الوقت لن أتأخر.

ثم ناداني العم قائلًا لي:

- مهما كانت تفاصيل يومك ثقيلة على روحك ستتجاوزها بإذن الله، ما

خُلقت لتعجز ولا لتيأس حتى لو طال ظلامك سيأتي نور ربك.

كلماته اخترقت جدار قلبي وتعقد لساني، كنت في حاجة إلى هذه الجرعة من الأمل «أشكرك وطال عمرك».

******

القسم الثالث

عندما دخل سند إلى غرفة التشريح كانت عيونه تبحث عن سلمى؛ ولكن لم يجدها فقال بينه وبين نفسه «يبدو أنها متأخرة» ولم يسأل عنها.

أخبر الفريق ما حدث بالأمس ثم قال لهم:

«- لم يخيَّل إليَّ بعد كل ذلك إلا التسمم.

ظهرت على وجوههم جميعًا علامات التعجب والاندهاش ثم أكمل سند:

- ماذا لو فسَّرنا عدم ثبوت اللون في كل أنحاء جسمه على أنه تسمم، انظروا إلى المنطقة الصدرية أكثر منطقة يغلبها الصفار...

وقبل أن يكمل طُرِقَ باب الغرفة فإذا به الممرض يقول لسند:

- إن أحدهم بسيارة الشرطة يطلب رؤيته. فخرج سند إلى الساحة.

- جاد لماذا أنت هنا؟

- أخذت لك إذنًا من مدير المشفى لتأتي معنا إلى بيت أبي سالم هناك شيء يجب أن تراه.

- أمهلني لحظة لأخبر الفريق الطبي وأحضر أغراضي.

عاد إليهم وطلب منهم أن يأخذوا عينة من أنسجة المنطقة الصدرية لفحصها، كي يأتي في اليوم التالي ليرى النتيجة ويكتب التقرير، ثم ودَّعهم وخرج ليركب السيارة.

كان جاد يقود السيارة ويبدو عليه القلق والتوتر فسأله سند:

- ماذا حدث؟

- خرجنا باكرًا لتفتيش بيت أبي سالم؛ فإذا بسلمى تفتح لنا الباب.

أصبحتْ عينَا سندٍ أشبه بدائرتين كبيرتين وقال متلعثمًا:

- كيف؟ سلمى؟

- إنه والدها.

بدا سند غير مدرك لما يسمع هل يحزن لسلمى وبحالها، أم يفرح لأن والدها قد وقع وأخيرًا؟!

- كيف لم تعرفه عندما رأيته أول مرة، وبالأصل ماذا يفعل بألمانيا؟

- لم أقابله غير مرة ونحن في الثانوية وعن بُعدٍ، فكيف لي أن أحفظ ملامح وجهه وما يدريني أنه سينتقل قبل سنتين إلى هنا مع أعماله القذرة.

- لحظة، لحظة أكنت تعلم أنه هنا ومنذ سنتين ولم تخبرني؟!

أجاب جاد مترددًا وبهدوء وكأنه يختار كلماته بعناية فهو لا يريد أن يحصل شجار بينهما ولا أن تتزعزع ثقة سند به:

- اهدأ يا سند، قد علمت ذلك عن طريق المصادفة ولم أعطِ للأمر

اهتمامًا، فقد قطعتَ علاقتك بهذه العائلة ولم أُرِد أن تعلم أنت ذلك حتى تبدأ حياة جديدة هنا.

أزاح سند رأسه إلى ناحية النافذة وأطلق نظره خارجها لا يرى أمامه شيئًا، فقط يفكر في حال سلمى قد أَغلَق على قلبه منذ سنوات وسيبقى هكذا ولن تنفجر مشاعره حين رؤيتها بحالتها الضعيفة في هذا الوقت حتى تثبت التهمة على والدها ويزج بالسجن.

- هل أخبرتم سلمى بالتهمة؟

- نعم، هي الآن تنتظرنا وعلى وجهها علامات الصدمة، بالبداية عندما طرقنا الباب وفتحت لنا صُدِمْتُ لرؤيتها، ثم سألتها عن أبي سالم فلم تعرفه حتى أريتها صورته، تبيَّن لنا أنه كذب بشأن اسمه، ومنذ الأمس لم يَعد إلى البيت، وأخبرتنا سلمى أنه ليس لديها أخ يعيش خارج ألمانيا.

ثم سكت لحظة وأكمل:

- أظن أنه آن الأوان لتخبرها بحقيقة أبيها هي الآن تنتظرنا في البيت.

دخل سند البيت متلهفًا لرؤيتها، كانت تجلس على الأريكة تضع رأسها بين يديها، رفعت رأسها عندما سمعتْ خطوات أقدام فسألت وهي تبكي:

- أثبت أن أبي خلف هذه الجريمة، أسيدخل السجن الآن؟

- سلمى أنتِ قوية، قد حان الوقت لأن ينال عقابه، أنا متأكد أنه القاتل وهو على رأس العصابة.

وقفت سلمى وقد أصبح البيت في حالة استنفار.

- لماذا تقول ذلك عن والدي، أم تظن أن الجميع سيء مثلك يا خائن.

- لا تصرخي واهدئي.

فَرَك سند جبينه بيده يستجمع قواه:

- أنا لم أقم بخيانتك، أخبرتك بذلك كي أخفي عنك حقيقة والدك

وأجعلك تحقدين عليَّ وتبتعدين.

اشتد بكاء سلمى وتكلمت بصوت حزين ومكسور على وشك الانهيار:

- لا يمكن أن يكون أبي سيئًا إلى هذه الدرجة لتتركني، حتى إن كان كذلك فلم تجد غير كذبة أن والدتك وجدتْ لك الفتاة المناسبة؟

تمالك سند أعصابه:

- والدك الذي أجبرني وهددني بتعريض عائلتي وأنتِ للأذى، لأني علمت بما يقوم من سرقة ونصب واحتيال، كنت أنتظر أن تمسكي بإحدى زلاته حتى إن أخبرتك تصدقينني، شاء القدر لهذه الحادثة أن يكشفه لك.

بكت سلمى وسند لا يزال صلبًا لا يقدم ولا يرجع خطوة فقط ينظر إليها بأسى.

جاء اتصال لجاد من المركز ليخبره أنه تم الإمساك بأحد الأفراد الذين

تم تعرفهم وتعقبهم من خلال بصماتهم، بعد أن أنهى جاد المكالمة أخبرهم بذلك:

- علينا أن نجعله يتكلم غدًا لنمسك بالرأس والباقي.

اقترب سند من سلمى:

- أنا آسف حقًا، لكن عليك أن تساعدينا بإيجاد والدك.

بقيت سلمى تنظر إلى سند عدة ثوانٍ وكأنها تقول الكثير بنظراتها وهزَّت رأسها بالموافقة.

أخذ سند نفسًا عميقًا، ثم قال فادي:

- يا له من محتال استخدم حروف سلمى لتشكيل اسم سالم، إنها نفس الحروف، أشك في مصداقية المعلومات التي تبقت لنا منه.

ثم خرج كل منهم إلى جهته.

******

سند:

كنت أود أن تبدأ رسالتي لكِ كالعادة بعزيزتي، ولكن يبدو أنِّي سأقسو عليكِ وأدعوكِ بظالمتي أو قاتمتي...

أذكر آخر رسالة، كنتِ في الثانوية وكنتِ كما عهدتك هادئة ومتفتحة الذهن ويطغى الحياء على وجنتيك، وتخطين خطواتك بعقلك لا بقلبك، حيث أدركتِ ماهية القلب متجاهلة حقيقة عمله، وأقسمتِ بأن قلبك كالحجر المتشقق، بارد كالثلج، لأقتصر في تعريفه بالصخر الجليدي، يوحي ملمسه الأملس بطيبته ولينه الخفي تحت قوامه الذي لا يذيبه أي منبع دافئ، بعدسة الأبهر مهما كانت المجريات التي آلت به ليصبح بهذا الإحكام.

تمهدتْ لكِ الأقدار بدرب تملأه الأشواك في غربة تنهش الأحلام فتتلاشى الآمال، يُملَى عليكِ قطافها بنسيج يديك الناعم، كفتاة بفستانها الأرجوانيِّ وشعرها الأسود الناعم الطويل التي نَسيت بل تناست سلتها ومقصها ظنًا منها أنه ورد بلا أشواك، بدأت بكبرياء القرنفل، حتى هَلكتْ غطرستُها سعادةَ زهرة دوار الشمس، فشفى سحر الأوركيد دماءها، فيفخر الزنبق لقوتها وبطشها.

******

لم يعرف كيف سارت به قدماه إلى أعلى الجبل حيث بيت بائعة الزهور، فسألته وهي تسرع المشي إليه:

- ما بال وجهك شاحبًا هكذا؟

وأمسكتْ بيده تجره إلى أسفل شجرة كبيرة أمام بيتها حيث توجد صخرتان كبيرتان، تسطع عليهما من الأسفل أضواء الشوارع الخالية من الناس، ولارتفاع الجبل كأنك تشاهد سينما صامتة، ومن الأعلى سماء

هادئة والبدر يراقبنا.

لم تعرف الخالة ماذا تقول أو تفعل لتحمل قليلًا عن كاهله:

- يبدو أن نجمتي حزينة لحالك فلم تضئ فوق الشجرة.

نظر إليها سند دون استيعاب يريد توضيحًا لما قالته.

- عندما أعجز عن النوم في الليل أجلس على هذه الصخرة أكلِّم نجمة كرفيق سهر.

- أعلمتْ هي بقدومي حتى لا تأتي الليلة؟

- ربما.

ثم حلَّ الصمت والهدوء في الأرجاء.

- أخبرني ما سبب العتمة خلف قضبان سجن روحك؟

عيناه أصبحت أشبه ببحيْرَتَيْن مالحتين، قال بصوت مكسور:

«إلى متى سأبقى أعتزل بمشاعري التي طال عمرها؟ أشعر بأني محطم، بل أعظم من ذلك.

إلى متى سأبقى أنسى آلامي أمام ألم الآخرين؟

إلى متى سأبقى أخبئ كلماتي التائهة؟

إلى متى سيبقى الحريق يلتهب داخلي؟

ما الذي لم يصبح رمادًا حتى الآن؟

عثراتي، كدماتي، حطامي، أين ألقي بهم ليتسع داخلي؟

ثم أغمض عينيه ليسمح لدمعتين تهربان من بحر عينيه، أخذ نفسًا طويلًا ليسحب أكبر كمية من الأكسجين، ثم أكمل:

«في آخر سنة دراسية لي في المدرسة أسرتني فتاة بحبة الخال أسفل عينها الواسعة تزيِّن خدها الأيسر، وشلال شعرها الأسود، هادئة، قوية، تتقن النطق بالعيون، لأنها تؤمن أن شعورها يغلب كلمات اللسان، كانت لا

تحب أن أحدِّثها بحروف غزلٍ بل تفضل نظرة حب صادقة.

عندما رأيت أزهارك في العربة ذكَّرتني، عندما كنت آخذ صديقي معي كل يوم ونتأخر عن المدرسة لأشتري لها زهرة الشمس التي لم تَكُفَّ يومًا عن إعجابها بها حتى كِدْتُ أظنُّ حبها لها يفوق حبها لي.

والدها يبغضني منذ أول يوم التقيت به دون سبب، وفي يوم من الأيام بعد عودتي من الجامعة كنت قد دخلت السنة الأولى في الطب، ذهبت إلى أحد المحال التجارية في منطقة حول قريتنا؛ فإذا بمجموعة من الرجال يتكلمون ويشتمون أحدهم نصب عليهم وأخذ مالهم مقابل شيء لم يحصلوا عليه منه حتى سمعت اسمه يتردد على لسانهم، فشككت في الأمر ولم أعره اهتمامًا، ثم راودني شك عكسي يأكلني عندما تذكرت أنَّ سلمى أخبرتني يومًا أن والدها لا يبقى كثيرًا في البيت مدة يمكن أن تصل إلى ثلاثة أيام، بحجة أن لديه عملًا مسائيًّا، فقررت أن أعود إلى الرجال وأتأكد منهم، أخبروني أنهم قاموا بشراء بضاعة

لمحالهم منه ووعدهم بأن تأتي محملة بسيارة التحميل وتسليم المال يكون مدفوعًا مسبقًا، ثم اختفى وعندما سألنا عنه علمنا أنه قد سُجِنَ من قبل بتهمة سرقة، وأنه شخص غير متزن يعبد المال، والأكبر من ذلك أنه دائمًا ينجو من الشرطة ويدَّعي البراءة.

عندما عدتُ إلى البيت عزمت في اليوم التالي أن أذهب إليه، فأنا أعلم أين يسكن ويبدو أنه كان ينتحل شخصيات ليست له أمام الناس بما يخدم مصالحه الشخصية مقابل المال، إن كان حقيقة فكيف يكون موقفه أمام ابنته، فالذي كان يهمني في وقتها سلمى، وما كدت أكمل كلامي حتى انهال عليَّ بالشتم وهددني بأن يعرضني للأذى، وعندما أخبرته أني لا أخاف منه وأريد أن أتزوج ابنته!! فهذا فقط الذي خطر ببالي لحظتها كي أحميها من خدائعه التي سوف تنقلب على ابنته يومًا ما، فإذا به يهددني بها وبعائلتي إن لم أبتعد عنها، لقد أمسكني من يدي التي تؤلمني من نقطة ضعفي (سلمى وعائلتي)، عدت إلى غرفتي

مكسور الخاطر، كنت أشعر بنار تحرق صدري وسلاسل تقيدني من عنقي لكلا أمرين والد سلمى وزميل في قاعة المحاضرة بعد مناقشة حول موضوع ما، حين قال لي: «كن ديمقراطيًّا» لعجزي عن إعطائهم إجابة سؤال تعجبهم.

ثم سكتَ قليلًا وأكمل يخبرها بالجريمة التي شاء القدر بها أن تكون المنصفة وكيف وجدها اليوم كطائر مكسور الجناح، هذه هي حكايتي، حتى الآن لا يزال ظلها يلاحقني ويأسرني.

بدا على وجهها الحزن والمواساة فرفعت رأسها إلى السماء وقالت:

- نَجمتي..

لا تلمعينَ في غَيرِ الظَّلام، فهل يحقُّ للظلامِ أنْ يحلَّ من دونِك؟!

سَأنتظرُ وَميضَكِ ليُكَلِلَ سماءَ ليلةِ الجُمُعَة، فقد اعتدَتُّ أنْ أُملِي عَليكِ هَمَساتي كلَّ ليلة، فحالُنا ليس ثابتًا، وفِكرُنا ليس قاطعًا، وكلِمتُنا ليست

فاصلةً، والأقبحُ من ذلك لسنا بِخيرٍ.

أتذكُرين ليلةَ السَّبتِ عندما أخبرتُكِ أنَّ الإحسانَ أصبحَ يُردُّ بالإساءَة، لكنَّني جزمتُ أنْ أُصيبَ السّيئةَ بسهامِ الحَسَنةِ دومًا.

وليلةُ الأحدِ أخبرْتُكِ أنَّ الكَلمةَ الجارحةَ أصبحَتْ موضةً، وكشْفُ العيبِ طُرْفة، وكسْر الخاطرِ فَرضًا وقُوَّة، لكنَّني اتخذتُ الأزرقَ لقلبي سلامًا والأخضرَ لعروقي وِفاقًا وغفرانًا.

في الإثنينِ أخبرتُكِ أنَّ الاحترامَ أصبح عادةً قديمةً متنحِّية، والصَّوت العالي أصبح تقليدًا جديدًا سائدًا، لكنَّني أرتدي بُردةَ الحياء.

أمَّا في الثُّلاثاء الباطلُ يُبنى، وفي الأربعاء الحقُّ يُهدَم، لكنَّني وَجدتُ للصدقِ مكانًا حتَّى ولو كُنت عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ.

وليلةُ الخميسِ أخبرتُك أنَّ المشاعرَ أصبحت إهداء رفاهية كاذبة، لكنَّني أُتقنُ المُجاملَةَ والابتسامةَ فنًّا.

أمَّا في سماء ليلة الجمُعة هذه أريد أنْ أُخبرَكِ أنَّ الظّلامَ قد حلَّ من دونكِ فكَسْرُ الثِّقةِ أصبح عُنوانًا، لكنَّني لن أُعطيَ الثِّقةَ لغيرِ نفسي حتَّى يَلجَ الجمَلُ في سَمِّ الخِيَاطِ.

فلم تأتِ أنتِ اليوم، وغدًا لن آتي أنا.

ثم نظرت إليه بحب مردفة:

- اصبر قليلًا ثم سيمطر الله على قلبك ويجعله صلدًا يمحو كل ما نما عليه من حزن.

قال الله تعالى في كتابه الجليل: (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا). صدق الله العظيم

-كدتُّ أنسى أن أريكَ شيئًا تعالي معي.

لحق بها إلى غرفة زجاجية كبيرة خلف البيت وبعد أن ألقى نظرةً إلى الداخل رُسمت على وجهه علامات إعجاب شديد فقال لها:

« هل يمكنني أن أصطحب أحدًا ما معي إلى هنا في المرة القادمة؟

- يبدو أنك تنوي على شيء ما.

- ألم تقولي لي اصنع السعادة بنفسك؟!

- أتمنى لك حياة مليئة بالحب والعطاء والكرم، وانظر إلى الأمام واشعر بالخوف من الاستسلام، واجعل ثقتك بالله كبيرة، وأن يلازمك إيمانك، ويبقى الله أمام عينيك، البيت بيتك يا بني، أنتظرُك في أي وقت.

ثم قبّل جبينها.

- تصبح على خير وأمان.

- وأنتِ الخير والوطن ذاته.

******

مركز التحقيق

في ظهيرة اليوم التالي، وفادي مُمعن بتنقيب الهاتف الخاص بالغريم المشارك بالجناية أجذلَ بكثرة الرموز المشفرة التي تشملها رسائل عدة من أرقام مختلفة.

تابعه جاد يحدق إلى هذا الكم من الإشارات المبهمة يحاول استنباط مفاهيم ذات دلالة تدلي بهم إلى ثغر ما، حتى وَهَن عن ذلك متفوهاً:

- يبدو أنهم يتراسلون فيما بينهم بالشيفرات الملتبسة.

أحجمَ فادي قليلًا يحاول الإتيان بذاكرته:

- لقد رأيت مثل هذه الرموز في مكانٍ ما.

هبَّ عن مقعده وجلب لعبة الزهر وقرأ رمزًا كان منقوشًا أسفل القاعدة:

- « د. ن. أ» إذاً هذه مُلك أبي سلمى ولكن ماذا تعني هذه الأحرف؟

- الذي يتواصل بهذه اللغة مع رأس الأفعى بحوزتنا، هاتها والحق بي.

كَبَحَ جاد أمام الغريم.

- أجب عن الأسئلة دون تحايل وتدجيل، ليس هناك داعٍ للتلفيق، مؤكد هذا مأثمكم الأول والأخير، أين يختبئ سيدكم؟

- لا أعلم

رفع جاد إصبعه بعصبية، وقبل أن يتكلم...

- حقًا لا أعلم، ليس لديه مكان يمكث فيه، بل تجده في كل مكان.

- إذًا أين مقركم لا بدَّ من وجود مقر محدد ترسمون فيها خبثكم وتتقاسمون غنائمكم.

- ليس لنا مقر محدد، في كل لقاء يرسل لنا شيفرة نفكها لنعلم المكان ويوزع علينا المهام، ثم يختفي مدةً لا بأس بها.

- سأريك شيئًا، هل تعلم بأمر هذه اللعبة؟

بدت عليه نظرات قلق وتوتر، فقال متعتعًا:

- لا... لا أعلم.

- إن لم تخبرنا كل الحقائق ستعاقب عنهم جميعًا، ولن نمل من استضافتك حتى نمسك بهم.

بدا وكأنه اعتقل من لسانه وأردف جاد ساخرًا مخاطبًا فادي:

- يا حبذا لو أنك تقدم له إحدى لمساتك الناعمة على رأسه.

- انتظر، سأخبرك ولكن عليك أن تعدني بأنك لن تخبر عمَّن أدلى لكم بالمعلومات.

- هل أنت أحمق، حتمًا قد علموا منذ زمن أنك هنا، هيَّا تكلم، لا تجعلني أقطع حبل أعصابي، ماذا تعني هذه الرموز الثلاثة «د. ن. أ»؟

- لا أملك الدهاء الكافي كي أُسَوِّغ هذه الرموز وحدي بل برفقة باقي أفراد العصابة.

- هذا لا يعتمد على حدة عقلك ونجابة رأسك، أكثر من أن تكون هناك سياسة معينة تتبعونها في حلِّ هذه الرموز كما حُلَّت جميع الشيفرات على هاتفك من قبل.

- هل يمكنني رؤيتها مرة أخرى.

وضع اللعبة أمام ناظريه يعاينها بتفحص شديد.

******

دخل عليهم سند متلفظًا بأنه تمَّ تسليم التقرير الطبي للسلطة التحقيقية كبيان أولي للجريمة، حتى يتم فحصها من قبل طبيب آخر كخبير فني لتستند الحقائق على استنباط واستدلال علمي.

سأل جاد مستفسرًا:

- أتقصد أنكم كشفتم ستار الغموض عن الجثة؟

- ليس بعد ولكن الشهادة التي أدليت بها قبل قليل تكشف أنه زُهِق

على إثر تسمم بمادة كيميائية، والخبير الفني الآن يعمل على الإلمام بنوعها، كنت قد علمت من الخارج بأمر الشيفرات، هل حللتم شيفرة اللعبة؟

- ها هو أمامك ينظر إليها كالأهوج.

أقدم سند يقلِّب بالأحجار وبنصف علبة محترقة أمامه فإذا به يرصد رمزاً آخر على العلبة...

«ب. ض. ق. ز».

صخب جاد صارخًا:

- ماذا تعني هذه الرموز بحق الجحيم؟

أقبل سند ينظر إلى الرموز بدقة ثم قال بصوت خافت:

- أصفر.

- ماذا؟

- الرموز تعني أصفر، هذه العلبة التي كانت تحتوي على المادة المسممة، حيث أفضت إلى صبغ الجلد في منطقة الصدر باللون الأصفر، لو أخذت الحرف السابق لهذه الحروف «ب. ض. ق. ز» تصبح «أ. ص. ف. ر».

رمق جاد رمقة إعجاب إلى سند قائلًا:

- يا لفطنة وألمعية عقلك كيف حللتها؟ ولكن هذه الخدعة لا تنطبق على رموز اللعبة، وإلا ستعطي كلمة ليس لها معنى.

نطق الغريم:

- ذهب.

أردف سند:

- نعم، الحرف التالي لكل من «د. ن. أ» تعطي « ذ. ه. ب «يا لهذا العجوز المراوغ المحتال.

قال جاد مخاطبًا الغريم:

- إذًا ذهب واللعبة مصنَّعة من الذهب، بِمَ تفسر هذا؟

- هذه إحدى المقتنيات التي قمنا بسرقتها من مصنع لتشكيل الذهب بمكان يكاد يكون مكنونًا أسفل الأرض، وقد أمرنا بنقش أحرف ورسم رموز على كثير منها، لا أعلم ما النيَّة التي تكمن خلف ذلك ولن أظن كي يروي روحه المتعطشة لكنز المال ويشعر بأنها ملكه.

قاطعه فادي:

- أفعى بعدة رؤوس، أتساءل عند أي سؤال قال الحقيقة.

ثمَّ أردف الغريم:

- أستتركني أذهب بعد أن علمتم الحقائق؟

- ليس بعد حتى نصطادهم، عليك أن تكون عونًا بذلك.

- كيف وقد علموا بأني هنا؟

- أنت تجد حلًّا.

- بعد يومين سيقوم بعملية سرقة جديدة؛ ولكن تختلف بالمكان والزمان عن التي تسبقها وهو سيلحق بنا بعد أن ينضم إلى حفلة تعود لصديق له، سيرسل إلينا الشيفرات أثناء الحفل، يمكنني أن أحصل عليها فقط من أحدنا دون حل لغزها، سيترك لكم.

- ما الذي يجعلنا نصدق الأمر أم أنها خطة لفقتها الآن لكي تنجو؟

- وما الذي سيجعلني أصدِّق أنك ستطلق سراحي بعد الإمساك بهم؟

- لم أعدك بشيء حتى تغلق القضية، سنرى إن كان ما قلته لنا حقيقة، سنقوم بعملنا على أنه حقيقة ولكي تنفِّذ عملك، ستخرج وأنت مراقب فلا يمكنك النفور.

******

خرج جاد من الغرفة وطلب من سند أن يهاتف سلمى لتأتي إلى هنا.

بعد مُضِيِّ ساعة تقريبًا، كانت سلمى تمكث لدى مكتب جاد:

- أتمنى أن تكوني قد أحسنتِ التصرف ولم تدعي والدك يلحظ عليك تأثرك.

فوالدها هاتفها ليخبرها بعذرٍ كاذب يفسِّر سبب عدم إيابه إلى البيت في هذه الأيام.

- يجهل تمامًا ما يدور في بيته، ذكَّرني بحفلة صديقه بعد يوم غد، ولكن لا أرغب في تلبية الدعوة؛ لأتجنب لقاءه.

- من أجل هذا طلبت مجيئك إلى هنا، في ذلك اليوم سنمسك بهم متلبسين بمهمَّة جديدة، لذلك أريد منك الذهاب حتى تكوني حبل صلة بيننا وبينه، برفقته راقبي تحركاته جيدًا وانقلي إلينا الدقيقة التي يتراسل بها من محموله، لا تخافي، على طاولة أخرى سيوجد سند وفادي لتعطيهم المعلومات، ثم سيصل إلينا مضمون الرسالة التي هي عبارة عن شيفرة لذكر زمان ومكان العملية عن طريق الغريم الذي بين أيدينا،

أما أنا وباقي الفريق سنستعد لمحاصرة المكان المحجوب.

- ولكن أريد أن أكون برفقتكم عند القبض عليه.

- لا مشكلة.

استرسل سند:

- انضمي إلينا بعد خروج والدك من الحفل.

تابع جاد:

- أتدري يا سند، أفكر لماذا لم يتم التبليغ عن عمليات سرقة لهذا المكان المخبأ من قبل، فكما قال إنها ليست المرة الأولى.

- أظن أن المكان غير مرخص، وخوفًا من إغلاقه بالإضافة إلى أنه متنقل، فيخسر صاحبه القليل أفضل من الكثير، سيذوب الثلج قريبًا.

******

سلمى:

اتخذَتُ من ظلام الليل الحالك فستانًا أسود غامقًا ومن ذائع نجومه برقًا سائرًا على صدرها، وذيل فستانها يمسح من ورائها بقايا سحرِ نعليها، وخيوط شعرها الأسود على ظاهرها، خيلاء تمشي بين تجمُّع متكدس لكَمٍّ هائل من النَّاس، لا تدري هل انتخبت الأسود دون غيره من الألوان كناية عن عزائها أم لفتنة ملك الألوان.

تقف بجانب والدها تميل رأسها يُمنةً ويُسرى تقصُّ أثر حليفها، تعزف بأصابعها لحن اضطراب على شفاه كأس شرابها، تُرهق تجاعيد دماغها، ألا يمكن أن ندوِّن لحظة أعظم استيطان جرأةٍ، وأكبر قوة، وأكثر بزوغًا على أنها أنفس قيمة تستحق الثناء لأجسادنا إلى جانب اعتذار آسف لأرواحنا.

خوض رعب البدايات، وإهمالٍ وتراخٍ بعد اعتياد، ودرجات انسحاب النهايات، ونسيان أثمن الدقات واللَّحظات بحجة عدم الانتباه والانشغال، ولأننا نحن، ولأننا نغفر ونسامح، ندفن غصةً شائكة دون قصد وندَّعي ابتسامة اطمئنان، وفي الخلوةِ لا نسمح للشكوى أن تسري لأذنٍ ليست لنا.

لاحظت حركة يد والدها إلى جيبه، خيِّل إليها أنها حركة بتصوير بطيء، ثم بدت أطراف أصابعه تنقر شاشة هاتفه، وبدأ يتلفظ بكلام عذر واستئذان لمن يشاركه الطاولة، تيقنت أنها ليست بسينما تشاهد فيلمًا، رفعت نظرها إلى اتجاه طاولة سند وفادي، وأومأت إليهم برأسها وبحركة من يدها تشير إلى إتمام إرسال الرسالة عند السابعة والربع، وعزمه على النفور.

سريعًا ما تواصل سند مع جاد، وأرسل إليهم الغريم الشيفرة برسالة نصية.

كان سند خلف مقود السيارة وفادي بجانبه وسلمى في الكرسي الخلفي، وجاد على اتصال بهاتف فادي حين وصلت الرسالة، قرأها بصوت عالٍ:

« يتأجج بدر آب

في غور لهوٍ ماجن

لذة نهرٍ شرابه خمر»

سريعًا ما قالت سلمى:

- يوجد في المكان نهر، ولكن أيقصد على ضفته يُشرب الخمر؟

قال فادي نافيًا:

- لا لا، أظنُّه يقصد ملهى على ضفة النهر حين قال لهو ماجن وخمر.

أردف سند:

- غور لهو تعني قعر الملهى أي أسفله، أيكون طريق النزول إليه من

الداخل؟

أجابه جاد:

- لا يهمنا أين مدخل الغور كثيرًا، المهم الساعة التي سيوجدون فيها هناك، ثم نلحق بهم إلى الداخل.

تفكر سلمى بصوتٍ مرتفع إذ قالت:

- يتأجج بدر آب، نحن لسنا بشهر آب، أظنه يقصد الساعة الثامنة.

تلفظ جاد سريعًا:

- نعم نعم، وبدر تعني منتصف الشهر أي عند الساعة الثامنة والنصف، هيا أسرعوا إلى هناك لم يتبقَّ غير نصف ساعة، يجب أن نصل أولًا حتى نُحوِّط المكان.

أدار سند محرك السيارة، وجاد في سيارةٍ أخرى مع باقي أعضاء الشرطة يرتدون ملابس غير زيِّهم، لكي يسهل عليهم الحركة دون الالتفات

إليهم.

حين وصولهم، ركن سند السيارة بالقرب من الملهى، تَرَجَّلَ فادي منها لينضم إلى جاد، أما سلمى وسند لَزِما السيارة.

قال جاد:

« لم يتبقَّ إلا عشر دقائق، أنا وفادي سنحوِّط الجهة الشرقية للملهى.

أما أنتم - مخاطبًا الفريق - الزموا ضفة النهر كأنكم أُناس تتسامرون، وكونوا متيقظين وعلى استعداد، شغلوا جهاز الصوت.

أخذ كل منهم مكانه، لمح جاد اثنين يتوافدان من بعيد بحرص يلتفتان حول أنفسهما، فأنبأهم بذلك، توقفا بموقع جانب الملهى، خمَّن أنهما ينتظرن الباقي.

تفوَّه فادي:

- أصبحوا خمسة، أنمسك بهم الآن؟

- انتظر حتى يأتي سادسهم، ولكن ماذا لو كان السادس مع كبيرهم؟

ثمَّ أمر سريعًا من الجهاز الصوتي أن يلقوا القبض عليهم.

قيدوهم بسلاسل وكلبشات في السيارة بهدوء حتى لا يفزع أحد ما من المارِّين ويحدثون ضوضاء، ثمَّ ينفر رأس الأفعى.

تأفف جاد مخاطبًا فادي:

-أصبحت الساعة التاسعة ولم يأتوا حتى الآن، أيمكن...

وقبل أن يكمل كلامه لمحوا سندًا يُقدِم إليهم يمسك برجلٍ من ياقته.

ركضوا جميعًا إليه، فتكلم سند:

-لقد شاهدته يهرب حين أشار إليه أحد من الذين يعملون تحت إمرته، وقد اصطادوه أيضًا.

ضربه جاد بقدمه على ساقيه كي يجثو على ركبتيه، ثمَّ قال له:

-هناك من يريد أن يراك في هذه الحال.

أقدمت سلمى من خلف سند:

- سلمى، ابنتي...

أشارت إليه سلمى بأن يصمت

-لا تحاول الدفاع عن نفسك يا أبي، علمت بقذارة أفعالك كلها، حتى استبدادك لسند.

وبصوت أشبه بالباكي:

-لكن كيف هنت عليك تراني مكسورة الخاطر، ألم يؤنبك داخلك، ويسعفك صوت ضميرك أم أنَّك تفتقر إليه؟ كم أشعر بالخيبة والخذلان منك، دون إدراكي بأعمالك هذه كنت أشكو، وأقدم العزاء لنفسي يوميًّا لعدم اهتمامك بي منذ وفاة أمي، تظنُّ يا أبي أني ما زلت صغيرة لا أفقه شيئًا مما يدور حولي، تظنني غبية لا أعلم كيف أنت

وكيف تغيرت، ذلك لأني لا أبوح بشيء، وأسفي لجهلك بذاتي وبمن أنا، فملخصنا هذه ابنتي وهذا أبي، وما بيننا نقاطٌ متباعدة، أعتذر ولكن لا أذكر أنك تعلم شيئًا خاصًّا بي يشعرني أنك أبي حقًّا، فالذي تعرفه يعرفه الغريب تمامًا، ألم تخف أن تخسرني ببطشك هذا؟ لكن لأنك زرعت داخلي بذرة الحنان ورويتني في الصغر كنتُ دائمًا بجانبك، أمَّا أنت تركتني كالحشائش أنمو دون ماء في الكبر، تركتني أكمل مسيري وحدي، وتأتي فقط بالنهايات لتفخر بثمري، ألم تفكر كيف وصلت؟ وكم تعبت؟ وماذا واجهت؟ وكيف تكدرت؟ فلم أشعر بوجودك جانبي يومًا، جميعها تفاصيل صغيرة، ولكنها تعني لي الكثير.

ما زلت لا أجد إجابة لسؤال سألته لنفسي هل تحبين والدك أم لا؟

كم عجبت لقوة وسيطرة القلب على العقل، أسفي عليك.

ربَّت جاد على ظهرها:

-اهدئي يا عزيزتي قليلًا، سيتبدل حالك.

ثم أزاح نظره تجاه والدها:

- الآن قل لي لماذا اغتلتم جارك العجوز جميل، لقد وقعت بأيدينا ولن تستطيع خداعنا، فبحوزتنا الأدلة، ونعلم أنكم سممتموه، ولكن لماذا؟

- كشف أمري، وصمّم على الإبلاغ عني، فلم تكن بيدي حيلة غير التخلص منه.

- أخبرنا عن سارق الذهب ذاك الذي تسرق منه أنت أيضًا.

وهو يشير إلى بعض رجال مقيدين بأيدي أعضاء الشرطة.

- كنا نعمل معًا في النصب وسرقة المحال التجارية قبل قدومنا إلى ألمانيا، وعندما كشف سند أمري وحتى أُبْعِد سلمى عنه جعلتها تسجل بإحدى الجامعات هنا فانتقلنا جميعًا، ووجدت عملًا برفقته بمصنع لتشكيل الذهب...

قاطعه فادي:

-قد علمت أنك كذبت في هذا أيضاً، وأخبرتنا أنك تعمل في مصنع لتشكيل البلاستيك.

تابع:

-ثم أصبحنا نعمل ونسرق من الذهب حتى كُشِفَ أمرنا ولكن هذا الرجل اختفى، وعلمت بعد أشهر أنه ما زال يسرق ويكوِّم غنائمه في أكثر من مكان، فعزمت على سرقته، ونقشت أحرفًا عليها حتى يظن أنها مُلكي من قبل.

فأكمل سند عنه:

-عندما لاحظ جارك عند زيارته لك بعض قطع الأثاث التي تحمل لونًا ذهبيًّا لامعًا وشكَّ في أمرك، عَلِمَ كيف يميز الذهب الحقيقي، وفي اليوم الذي يليه ذهبتَ بلعبتك الذهبيَّة إلى بيته، فكُشف أمرك، وحاولتَ خنقه ولكن لم يفِ الأمر معك حتى أمرت رجالك بتسميمه بمادة كيميائية سامة آكلة لها تأثير موضعي تسبب تهتكًا للخلايا التي

تلامسها، وتبيَّن أنه حمض الآزوت الذي يتحول للون الأصفر بمجرد تعرضه للهواء أو النور، فقاموا بسكبه على صدره وهذا الحمض يجعل المناطق المتآكلة تظهر باللون الأصفر.

صرخ جاد:

-من أين لك بهذا السُّم يا حقير؟

ثم تابع سند:

-دعني أجيبك، يُعرف حاليًا بالتيزاب يستخدم لتنقية معدن الذهب من الشوائب الممزوجة معه، ولما كان لديه خبرة من مكان عمله في المصنع، فحتمًا أحضره من هناك.

لم يتفوه بأي كلمة فقط طأطأ رأسه.

أمر جاد أفراد الشرطة:

-خذوهم جميعًا إلى المركز، سألحق بكم.

في ذات اللحظة أصدر هاتف سلمى صوت رسالة، فكانت:

«ب. ض. ق. ز». أقراص الشمس.

بدت على وجهها علامات تعجب وهي تنظر إلى سند:

-ماذا تقصد؟

تدخل جاد وهو يأخذ الهاتف من يدها:

-أيمكنني أن أرى؟

ابتسم وقال:

-إنه نفس الرمز خذي الحرف السابق لكل حرف.

ثم هرب.

- أنتظرك غدًا عند الظهر بالقرب من الجبل.

عند ظهيرة اليوم التالي، اقترب بسيارته عند الجبل، فترجل منها، لمحها تقف تتلفت يمينًا ويسارًا حتى اقترب منها وصعد بها إلى بيت الخالة أعلى الجبل والتقيا بها تخرج من بابها:

- يبدو أنك سلمى، حدثني عنك سند وأخبرني من قبل أنه سيصطحب أحدًا ما إلى هنا ولكن لم يعلمني أنه أنتِ رغم أنني شككت في قدومك.

أجابها سند:

-لم أكن متأكدًا أن الأمور ستسير على ما يرام كما خُطِّطَ لها.

فقالت له: إنها ستذهب لتجلب غرضًا ما وتعود.

والغرفة الزجاجية مفتوحة يمكنكم رؤيتها.

بعد ذهابها سألت سلمى:

- من هذه العجوز؟

- إنها خالة تبيع الأزهار، لساني يعجز عن وصفها، إنها أشبه بضماد للجراح وملجأ دافئ، شعوري لها أعظم من بوح كلماتي.

- هل حللتِ اللغز؟

- أصفر. أقراص الشمس، ولكن ماذا تعني؟

فتح الغرفة فإذا بها تضيء باللون الأصفر لكمية أقراص أزهار دوار الشمس.

الفرحة اعتلت ملامحها الناعمة، أصبحت كالطفلة التي أخذت دميتها.

التفت إليها وقال:

- أتتْ أنثى الباشق متخبطة لتكبَّ عليّ بأحرفٍ سوداء، ارتبكتُ في ترتيبها لهولها، أخبَرَتني أنكِ ترتدين رداء السكون وتتجلين بالهدوء، تسيرين حافية القدمين فوق جرم ملتهب مسايرة لما يجول حولك دون أدنى ألم، تربتين الأكتاف بحنان متداعية الغباء واللَّامبالاة، وفي خلايا دماغك

ألف لام وما وذا تكاد تشعل رأسك، فهل يحق لي أن أدعوك بظالمتي؟ تحت أي مسمى عذر أغفر لكِ؟

- لا تلومني، فقد حلَّت اللعنة عليَّ، وأُحكم قيدها بمفتاح صدئ لكثر المحاولة، ألقى به الباشقُ خاصتك في إحدى بقاع الأرض التي لم تكشف بعد، معلنًا الانسحاب والوقوف في صفوف الجبناء، لن يكسر قيدي غير فرحة تنتشل أشلائي أو حزن يهلكني، أو خوف يرعبني حتى الموت.

- سأكفُّ بالاحتواء، رتلي بسحر آيات الجبار، حتى أجد مفتاح قيدك وأطليه من جديد، وحين ذاك سأغفر لك تحت مسمى السلام.

******

النهاية

الفهرس

١٧- الإهداء

١٨- الجريمة

٢١- ١/يونيو/٢٠١٧

٣٧- (٢) أبريل٢٠٢٠

٤٧- القسم الأول

٧٠- القسم الثاني

٨٩- القسم الثالث

١٠٦- مركز التحقيق

شارك سطورك مع العالم

01122380443